سرد
5

محمد الأحمد

الحلم بوزيرة

قصص قصيرة

* Muhammad AL-Ahmad * Muhammad AL-Ahmad * Muhammad AL-Ahmad *

سرد
5

ضمن سعيها المتواصل لوضع آلياتٍ وخطط وبرامج للتعريف بالنتاج الأبداعي العراقي , إستحدثت (دار الشؤون الثقافية العامة) , سلسلة (سرد) فكانت سلسلةً تعنى بالفنون السردية (روايةً وقصةً) , تهدف إلى تقديم صورة واضحة للسرد العراقي ضمن سياق نشري واحد يتيح للباحثين والنقاد فرصة دراسته ومتابعته بيسر, وتأشير إتجاهاته الفنية وتطوراته , وصولاً إلى تحديد هوية عراقية لجنس إبداعي طالما عده النقاد من الفنون الأدبية الوافدة على الثقافة العربية .

ولا تبغي السلسلة من وراء ذلك وضع أُطر مسبقة تحد هذه الإتجاهات .

وزارة الثقافة / دار الشؤون الثقافية العامة

اللوحة و الغلاف / رائد مهدي السعر / ٢٥٠٠ دينار

الحلم بوزيرة

سرد

الحلم بوزيرة

قصص قصيرة

محمد الأحمد

الطبعة الاولى – بغداد – ٢٠١٠

الحلم بوزيرة
محمد الأحمد

الطبعة الأولى ٢٠١٠

سلسلة سرد

رئيس مجلس الإدارة: نوفل أبو رغيف

رئيس تحرير: عبد الستار البيضاني

تصميم الغلاف: رائد مهدي

الطباعة الالكترونية : ايناس عباس صاحب

العنوان :

العراق – بغداد – اعظمية

ص. ب. ٤٠٢٣ – فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ – هاتف ٤٤٣٦٠٤٤

البريد الالكتروني dar-iraqculture@yahoo.com

All rights reserved . No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة ؛ لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي سابق من الناشر .

سأقولُ فيها ما أقول

ولم أخف

من ان يقولوا

شاعر متطرف

معروف الرصافي-

نقدُم الفن باعتباره مضموناً او شكلاً ماهو الا مسألة اختيار للاصطلاح المناسب لكن بشرط ان ندرك ان المضمون يشكل وأن الشكل يملأ، وان الإحساس احساسٌ مُشَكل وأن الشكل شكلٌ يُحسّنُ

- ناقد غربي-

فضاءٌ كله دم (*)

سبق ان وقفتُ منتصبا عند حافة حادة، من ظهيرة شديدة الحرارة، وانا ارنو إليها مبتسماً، وملوحاً بزهرة قلبي كيْ تتفيأ من قسوة شمس تموز المحرقة، يومها بقيت مخترقا كل تلك الاشعة

العمودية الحاقدة، ببصري كل تلك المسافة، البعيدة القريبة، ولم اك قد رايتُ روعة عينيها الناعستين، ضمة شفتيها الكرزيتين او بداعة خصرها الأهيف، بعد؛ حتى اعشقها العشق الذي يفوق معاني الشعر وموسيقاه، الذي تضرب به الأمثال.

لاجل أن أقول قولتي الأولى؛ كان عليّ ان اتجاوز حروفي المضطربة، تلك التي كانت حروفا مكبوسة، مشحونة، مليئة، كلها رغبة محقة في جهروتها، وجاذبيتها.. بقيت تحمل اكثر من حجمها، كانت تشبه كلمة نظمت في جزء يسير من قصيدة شاعر مجيد، ولا يمكن ترجمتها على الاطلاق..

(قلتِ اسمك: - إيناس؟

أكدت بهزة رأس مطوق بشعر ذهبي،لم تحرقه الشمس.

بقيت القصة تدور في ذهني، وكأنها الآن تحدث..

ساعتها سمعت صوت الرافعة الكهربائية تهدر مزمجرة بعنف شديد.

(*) نشرت في مجلة الأقلام العراقية

- انتبه كدت تقتل؟

قال ذلك أحدهم، ومضى..

ولكنني بقيت معها، وهي تشع عليّ بردا وسلاما)..

كان عليّ ان اعيد القصة بمثلما حدثت، بوقعها الرتيب المعهود، ولكن الشهقة هي التي تتوالى بي الى انحدار حاد، لتجعلني اقصها بشكل غير مترابط، فالبكاء يستنزفني، ويجعلني ارى صورتها في لمعة الدمعة التي بقيت تسحُّ على خدي؛ هكذا يتفطر القلب، وهكذا بدت القصة أول الأمر:- رايتها كفنار عال، ورحت اتابعها كما عصفور جائع يتابع فراشته في حقل مفتوح، ولم اكن اعلم بانها ستكون حاضرة في كل صحوي ومنامي؛ ويل من القامة الممشوقة، وهي تشق عنان المدى، متهادية في زحمة الضوء الباهر.. كأنها تسبحُ في بحر مظلم، مضيئة، و هي التي جعلتني أتلظى في التحديق المتأمل، المتمعن، أتابع تحولات التاريخ الأنثوي، وفعله العظيم في مسار الرجولة، يتماوج كبحر صاخب، لا يستكين. أحسست أنني بدأت اشعر بوطأة ظلم شديد عليّ، وفي الوقت ذاته، أحسست اني أحقق إنصافا لذلك الحرمان المرّ، هو أني تركت العمر يجري منسابا كماء النهر إلى مجراه دون أن يرويني، فالماء مائي، وتكويني، وبقيتُ عطشا، أحسست بتسرب هائل من كينونتي، وآثرت أن اعبر إليها رغم الزحام، والحوادث الجسام. وحين اقتربت منها بدت اكثر جمالا واكثر روعة واكثر بهاءاً.. صافحتها بتوق وحاولت ان ابقي يديها بين اصابعي قدر ما استطعت، وانظر اليها مدى ما سمح به الظرف من الوقت النزر.

تمنيت لها مستقبلاً زاهراً في عملها، ذلك كله كان فيما مضى.. اول لقاء بها. حروف مضطربة، ولكنها كانت حروفا مشحونة، ومليئة.

❖❖❖ ❖❖❖

(الاخبار في التلفاز اكثر سرعة ودويا، وتتناقض متضاربة.. كأنها تتذابح).

❖❖❖ ❖❖❖

مرة دخل احد الوشاة مخترعا لها، عني، قصة غريبة من بعد ان عرفها (بانه شقيق طليقتي، وانني سوف العب معها كما لعبت مع اخته، وانني سوف اتزوجها بدينار، ولن اطلقها الا بعشرة، من بعد مرّ العذاب)، ولم تنجح وشايته المغرضة، الا اسبوعا واحدا او اثنين، فصار عذله وصالا قويا، فيما بيننا، و رابطاً حتى النهاية... برغم انه كاد يقتلني بها، لاني المتيم، اذ حمل لها بعض الصور التي كنت اظهر فيها مع شقيقته، كإثبات، يوم كان القلب في ربيعه، ويوم كان الحب يقرب بيني وبينها.. ولكنها عبرت المحنة بمصارحتي بكل من جاء، وبمن حضر مريدا للخراب، والجفاء، فتزوجنا متحدين على الزمان كله، وحكيت لها مالم احك لاحد.. عن امراة سبقتها، وعن ظرف قاس كان يحيط بنا، ورحت احكي بمهارة العارف، ولم احرر لها اكاذيب تكرهها الانثى، بقيت صادقا متواصلاً. وهي تصغي الى القلب الذي شغف بصورتها، والى الاذن التي وَلَهَتْ بنغمتها.. كانت معي في الخطوات الواثقة نحو آمالنا الكبار، من بعد ان

حملت لي اجمل ما يمكن ان تحمله المرأة. ورحنا معا نعدُّ انفسنا الى مستقبل يتسعُ المدى..

❖❖❖ ❖❖❖

عمال وشرطة ذاهبون، وغيرهم كانوا عائدين، خطوط متقاطعة من الخطوات المتواترة، والطرق المتواصلة، ينزُّ منهم العرق غزيرا، وقد أيبسته الشمس على أجسادهم، و أيديهم لم تك فارغة، وسيارات الاطفاء تغسل الشارع، من اثر الدمار البغي. الصفير قد اهمل حاسة السمع، بقي الصوت الخائف المرتجف مبلولا بالصمت، ويومها في مكان آخر من يوم ما كان العمل يجري، هناك، دون توقف. سرت الهمهمة في موقع العمل، آلة خلط مادة (السمنت) وقفت بيني وبينك وقطعت خط البصر الذي كان يتواصل بالمدّ. بل كادت تضع المزيج فوق رأسي. بنطال جينز اظهر تفاصيل تعرجات انثوية، تحرك الغرائز، كانت ترتدي قميصاً للعمل من الستان الذي كأنه مبتهج في عزّ الحر، وتحيط بي مجموعة عمال عهدتم حراسا سوف يدافعون عن كوكبة أميرتهم بضراوة، قبل أن يكشفوا نية المقترب، وهو يشق الزحام نحو الموكب الملكي، كأني رايتهم صوبوا السهام نحوي، وأنا اشق عباب الغبار.

❖❖❖ ❖❖❖

(الاخبار في التلفاز اكثر سرعة ودويا، وتتناقض متضاربة.. كأنها تتذابح).

❖❖❖ ❖❖❖

كنت احدثها عن كل ما يؤلمني، وما ندمت، قلت لها وصدقتني نحن جيل الخيبة سنواته العشر الاولى قُضيت في رعب من اعتقال لاشتباه سياسي، والعشر الثانية اشتعلت ما بين التحاق الى الموت من الموت.. حربٌ ضروس ساقتنا اليها سياط لا ترحم، والعشر الثالثة تهرأت جوعا وكدحا من اجل لقمة كريمة.. اغلب اقراني هاجروا دون عودة. كانت تسمعني وتحتوي المي، تحنو على جراحي. عينان كأنهما بلون كل الالوان بهجة، وقد خبأتهما من سطوة الشمس المريرة، خلف زجاج معتم، ولكني شممتُ عطر انوثة تهوس اعتى الرجال، أيقظت في الرجولة المختبئة خلف أقنعة الزمان، وتعبه. بقيت اسأل عن الناس الابرياء؛ ما ذنبهم، اقدرهم ان يبقوا مروعين يخافون كل لحظة ان تنفجر من تحتهم الارض، ومن فوقهم السماء، ويشتعل بهم الهواء، وتتناثر النتف متباعدة دون دفن، ولا تقبلها حتى ثلاجة الموتى من بعد ان ضاعت الاعضاء عن اصحابها؛ اذ جُمعت من على سطوح المنازل التي جاورت مراكز الحوادث، وجعلت نفوس النسوة كسيرات يندبنّ حظهن بما تبقى من اسيجة وما تهشم من زجاج كان يسترهنّ.

ولكنها اليوم قد تركت القلم الهندسي، ومنضدتها المائلة، وفرجالها،

وورق الخرائط الفضفاضة.. تركت عالما مستقرا، لتعمل في مهنة اخرى لا تشبه المهن الا انها تسمى مهنة المتاعب، وابدلت بقية اشيائها بكاميرا ومكرفون وبقيت تطارد المخاطر حيث تكون، وذلك اصبح مناها، وما بيدي من امر قد سقط. بقيت احقق لها ما ارادت لتلحق بشقيقها، ولم تكن تدري بان النهايات متشابهة، فلم اقل لها ماذا سوف تجنين من كل ذلك التحول، بل اصبحت اسيراً لها، وما من مكان تصل اليه حتى اكون قربها، لتنقل الحدث بعد وقوعه، صار منبرها جلي الأشراق، فتان بها.. تمسك الكلمة لتخرجها موسيقى هائلة الوقع، صوتها العذب جعلها نجمة الاخبار، مجازفة، تنقل كل الوقائع، يعبرها الرصاص، وتعبر الموت..

(قالوا انهم من بضعة رجال بقوا احياء وشهود عيان.. الحدث قد صار عصرا. كانت حرارة الارض من شمس تموز تفور وتضرب الانوف ثم تحرمها التمتع بحرية التنفس. بقي الوقت حتى قدم بضعة رجال مسلحين متنكرين في كوفيات عراقية، واضرموا النار في شاحنة كانت تنقل العوارض الكونكريتية التي تستخدم في حماية الابنية الحكومية من السيارات المفخخة، ومن السوء ان تجمع حولها الناس البريئة، بعضهم تسلم مبالغ ليهتف، ولاسيما العاطل عن العمل.. يهتفون، هتافات بدت ناقصة تكملها الاذن التي سمعتها في السابق، هتافات بليدة تشبه سخرية من يعلن نفسه، وتزايدت حولهم الناس.. من بعد ان غطى الدخان الكثيف مسارات الناس وزاحمها في كل شيء. ولما حضرت الشرطة بكثافتها المعهودة الى المكان الذي أحرقت فيه الشاحنة.. تبين انه كان فخا خبيثا بعدما دخلت بينهم سيارة، كان صاحبها مقيدا يديه الى دفةِ

القيادة، وكان صوت قارئ القرآن.. ينبعث عاليا من مسجلته.. توغل الى العمق بمنتهى السهولة دون ان يثير استغراب احد، وقال شهود العيان ان صحافية مع القتلى كانت تجري لقاءا مع بعض شهود العيان حول الشاحنة التي احرقها المجهولون)...

❖❖❖ ❖❖❖

(الاخبار في التلفاز اكثر سرعة ودويا، وتتناقض متضاربة.. كأنها تتذابح).

❖❖❖ ❖❖❖

تطلُّ من شاشة الالوان بالوان اكثر زهوا، وكأنها تحكي لي احلى حكاياتها، واراها وحدي بكل جبروت انوثتها الطاغية، واعترف لها اني مستسلم لها وحدها كما يستسلم خاشع على سجادته.. تلك التي تمنحني سعادتي القصوى. يوم عرفتها كان العمل يسير حثيثا، و الوقتُ ضيقاً، والآلاتُ تهدر بعنف.. تهز الأرض من تحت الأقدام الماشية منطلقة إلى هدفها، تتقاطع الطرق، وتسير بالأيدي التي تحمل أسلاك الفولاذ، ليصبح قالبا يصبّ عليه الإسمنت، ويكون قالبا ينهض عليه البناء الشامخ لمحطة الكهرباء المنشأة في فضاء مفتوح لم تطمر نياسمه رمال الصحراء، حيث بقيت الأصوات تفور، العتلة الصغيرة تشبه الذراع، تتحرك جيئة، وذهابا في داخل أخدود من ماكينة أخرى، وتحدث تفاعلا

رهيبا، كأنه فعل لذة غامضة. (بضع ايدٍ او ارجل متناثرة هنا او هناك، امخاخ واحشاء تتطاير، وانصاف عارية معصوفة، بقيت معلقة على الاشجار، وحيطان بقيت محفرة بشظايا لعينة، حاقدة. تلك الجثث مازالت حقيقية طازجة ببرائتها، كما لو علقها القصابون من بضاعتهم)..

كنت اراقب المدى وهو يتقلص في اسيجة واعمدة تتصاعد، خطوط صاعدة واخرى نازلة.. اعمدة مؤخراتها نازلة با نحدار، كانزلاق هاوية، واخرى صعدت بحدة. وكان النهار يصل الى نهار اقرب، والمحنة احسها اقرب من ان تنتهي. بقيتُ أتلهف مشطورا، وفكري كله مصوب نحوك، وجسمي كان مستمرا في عمله.. مترددا في اقتناص فرصة الاقتراب منك، والتحدث.. أردت ان اعرف اسمك قبل أن تصلي ألي أو أنا اصل إليك، كنت ناعسة المشية، ناعمة الهديل، طاغية الأنوثة.. تسيرين واثقةُ الخطوة، حازمةُ التقدم، فأحسست احتراقا في الجوى، واضطرابا عاتيا قد عصف في أحشائي فصارت تريدك.. مهما كلف الثمن. فلم اقترب عمدا ولكني أصبحت حرا الى درجة غبتُ عن المكان، بأجنحة ملائكية. (نزل الدم من السماء كزخة قوية.. غطت واجهتي بلون احمر قان.. ونزلت ايضا الاصابع وبعض الايدي الكاملة، والارجل المشعرة، ومصارين، وامتلآت الارض بحريق ينفث موتا آخر)...

لكن لفتة من عينيك هي التي أنقذتني من الموقف القاتم، فأصبحت منقذتي، و أصبحت مدينا لك بحياتي، يومها، آنذاك، كأن رافعات الصناديق الخشبية، كانت هي الأخرى تهدر هديرا متواصلا، و لم اكن

منتبها برغم كل ذاك. الجميع يذهب إلى غايته، وتسير الأماني مقيدة إلى أقاحيها الشذية، فقد كان العمل مستمرا يجري إلى تشيد عامر بالارتفاع، والحكاية التي ابتدأت أخذت من الوقت كله. كأنني برغم الزحام كنت الوحيد الذي يعمل والوحيد الذي رأى، حدثتها ما استطعت تحديا لاية حكاية اخرى ستخترع لها، لأني كنت موقنا، بان شقيق طليقتي، قد اخذ يفقد توازنه، وربما لن يتوانى بيأسه عن فعل اي شيء خطير ..(- اسمها الذي اختارته لي من بين الأسماء أيضا يطابق اسمك، فتحت عينيها باستغراب والابتسامة أيضا كانت ذهبية تتلامع في ظهيرة العمل المتواصلة، وقصصت عليها قصتي مع امرأة قضت معي سنوات طوال غير مثمرة ثم ودعتني بخيانة لا تصدق ابداً)..

❖❖❖ ❖❖❖

(الاخبار في التلفاز اكثر سرعة ودوياً، وتتناقض متضاربة.. كأنها تتذابح).

❖❖❖ ❖❖❖

بقيتُ أتلفت يمينا ويسارا واردت أن أقول سأراك في وقت الغداء.. كأن مسّا من سحر أخذني إلى عمق لا أدريه.. ظلت الآلات تهدر بعنف اكبر، وبلا توقف، وهمهمة العمال المحيطين بي تتصاعد مع قرقعة المجرف الكبير، الذي بقي يجرف من اكوام الحصى الصغيرة، وضربات المعاول. الوجه الصافي بقي يلمعُ مثلما تلمع فضة الحقل. وثمة سحر آخر ويلي منه قد هدّ الأركان، واغرق السفن. (قالوا انها كانت بين شظايا الأجساد

التي تناثرت على سطوح المنازل القريبة.. خصلة شقراء هنا، وثلمة اظفر مصبوغة.. وبضع اصابع مضمخة بالحناء، ممتزجة بدم الجنين)..

١٦ سبتمبر ٢٠٠٤

الحلم بوزيرة

كأنني استخرجتها من طيّ الذكريات، تلك، التي كنت العب وإياها عندما كنا صغارا، براءة ليس لها مثيل، وأنا اعرف بأنها تريد سماعي، لأني أقول لها بعذوبة ترتجيها كل أغانيها، وتعودت منها أن تتعبني فيما تريد مني أن أغنيه. ووجدتني قد قلتُ لها اني بقيت ساعات طوالا أفكر في ندم لما حصل بيننا، ندم ما أشبه بصحوة العقل، فلابد لي أن أعاهد نفسي حتى لا نكرر فعلنا ذلك أبداً، (فأنت امرأة لرجل يصدقني القول، ولا يستحق مني أن اجرحه بمثل هذا الأمر، فليس لي الحق أن أوغل في الخطأ الجسيم، وأتمادى أكثر، وان كنت تريدين ذلك). فانا اعرف بأن مثل هذا الامرلم يعني احداً سوانا، ما دمنا نذهب اليه بمحض قناعتنا، ورغبتنا، و لا يعني احدا غيرنا بشيء، بقيتُ أقول ان ذلك لن يحدث أبدا، ولن تغويني مجددا، فأحس أني على يقين قد قطعت دابر الألم والندم اللذين يثقلان خطوتي، وقولي كقنينة مفتوحة يطير منها محتواها، كأنها تعرف بأنني بين نارين أريدها، وارفضها في آنّ، أريدها كونها تخلصني من احتقاني الذي ما وجدت له منفذا، وهو ما اتفقت به معي، و تريد مني أن أكون بقربها، حتى تتجاوز محنتها، كونها في أزمة خانقة تمرّ بها، من جراء جفاء حبيبها الذي تركت لأجله بيتاً مؤثثاً، وزوجا يحبها بجنون، و

ما أن كررت بكاءها أمامي، حتى وجدتني قد نضوتُ عني ملابسي فكررت الفعل، برغبة جديدة، و ربما نسيت ما عاهدت نفسي بأن اتركه. أراها متعطشة إلي، لن تشبع مني، أكاد اجزم بأنها الوحيدة التي تهتمّ بيّ كل ذلك الاهتمام، وما أن اجعلها تغلق الباب خلفي، فانتهي حتى أريد الهرب، نادما خائبا، وأنا اعرف بان قصتنا (الجديدة) ليست قصة حب، أبدا، فلا أحس بأي مشاعر تجاهها، سوى لذة عابرة مجردة، فلم أك يوما قد حلمت بها، كأني معها، مثل ماء نزل إلى منحدر، ولن تزيد أبدا عن حاجتها إلي وحاجتي إليها، واعرف كذلك منها، بأنها لن تحبني يوما أبدا، وأنالم أك أحبها يوما ما على الرغم من طول مدة علاقتنا، فمنذ أن كنا معا في المدرسة الابتدائية، وأخذتها الحياة إلى البعيد، وقد قذفها البحر من كل ذلك البعد الشاسع، والمسافة الزمنية الطويلة. حدث ذلك القول كلما تفرغ الليل أمامي بألف ورقة بيضاء، أجدها أمامي قضية للاعتراف، تستصرخني، أيها الكاتب تعال واقني بالمعنى، والبوح، بالقصيدة العصية التي تريد كتابتها منذ ألف عام ونيف، وقد عصت عليك، أو كادت تكون غربة بينية، بينك، وبين العالم المزدحم بالزلازل. بقيت تحدثني عن هجرتها بين فراغات الكون، وعن (سادية) زوجها الذي هربت منه إلى الأبد، حتى عادت خائبة من زيجتها ترتجي هناءها مع صديقي الذي غادرته أكثر من تسع سنين، فوجدته في كنف امرأة أخرى، تحدثني بأنها وجدته متغيرا إلى رجل آخر، شاربان ارتسما فوق وجهه، من بعد أن غزاه شيب كثير، و(الدرب إليه قد ضاع)، وهو الذي أحرقت من اجله سفنها. و لم أكُ مستعدا لملء الفراغ الذي تريده فلقد تغير عندي ذلك التوجه، وتغير عندي ذلك

الإحساس، وما عدت أفكر في معنى أن أحب أبدا، ليس لكوني تركت قصة انتهت بخيانة كبيرة، وحطمت قلبي، وجعلتني افرّ مما يسمى بالارتباط بامرأة. كنت قد اتصلت من مكتبها، واخبرني بان مركزه الاجتماعي وولده قد كبرا، ولا شيء في الدنيا يستحق منه أن يفرط بما أصبح عليه، ولكني أجد باني بادلت الأدوار، وكأن حبيبتي التي تخون، فاشتعل بندم قاهر. أخرجتُ التي تصاحبني حيثما أحس بضيق المكان، الة فيها تمكنني من كل ما يهيج بنفسي من فرح، الجأ إليها تعبث بها أصابعي، لتقول ما لا يقال. كنت انظر إلى صور (بابلو بيكاسو) الموزعة بانتظام على الجدران، أحدق مليا في الخطوط القوية التي توحي بجبروت الفنان المقتدر على أن يقول قوله، فكادت فخامة البراويز، تجعلني استفز، فرحتُ أسهبُ في قوافل ضياعي. حدث بأن طفولتي تشظت، وحدث بأنني قد أثمتُ بحق نفسي، وتكون مسافة جيل يستفز بالبارود، وتجارة العقول، فكم من مرة كتبت، وشفعتني بالخوف قبل النشوة أطلاقات قريبة أو سيارة مفخخة، تهزّ الأرض وتطرد الملائكة، ولا تفعل سوى أن تسقط الزجاج على المساند، وتذبح مساحات الكلم بألف تأجيل، فمسافة بين حرفها الأول، وأغنيتي تمتدّ دمعة لأكثر من تنهيدة. فقد اثرت الإيجاز، والتفرد بالكثافة، فحدث جلل أن يواقع الكاتب ورقته، دون أن تتهيأ ملائكته للهرب.. فكلما وسطتهُ أصابعي، أحس بخشونته، فهو يربض حزينا كسيرا منذ أكثر من تسع سنوات، ملفوفا إلى الجهة المحايدة،لم يلامس منذ زمن طويل مضى سوى أنسجة من القماش المصنع ليكون ناعما، رابضاً بين النسيان، مكللا بآيات الجهل والنفي والتهميش، لا اعرف كيف أصف تلك الرائحة التي تسللت إلى كلي، عبر

انفي وانتشرت في خلايا جسدي متدفقة، هوستني، وأفقدتني رزانتي ورحت عفويا انزلق إلى زواياها المتكورة بالانحناءات البديعة، إذ راحت أصابعي تسرح بحبور من وجد سعادته القصوى، مثلما اعزف لها، صرت انزلق على جيدها، وأتحسس نعومته الطاغية، وعيني تنبهر بالخال الأسود الذي يقبع مستكينا على كتفها، يسع سودا على بياض طيب، أصابعي تضرب أوتارها بهدوء، فكأنها تسللت وحدها تتحسس ليونة جسدٍ أوجعتني، إنثيالاته البليغة، فكانت الليونة الشهية تنشر بعروقي أشواقها الجسام، أشرقت عليّ حلمتيها بلون القهوة، بعد أن افلت بهمجية ما كان يعوقني عنهما، فاستسلمت أكثر، ثم رفعت هاتفا لتقول عبره (أنا في اجتماع)، وأجابت من الطرف الآخر بالإيجاب امرأة أخرى، فغلقت الأبواب. ولم أحس أنني معلق في الفضاء، قط، إذ كنت منحدرا بفحولة موجعة تنتصب أسفل بطني، إلى أسفل بطنها، فجعلتني أوغل إلى العمق أكثر، وأتمادى، في الأقل في البدء، كنت أظنني أتمادى، ولم أكُ سوى واهم، غبي، كوني أجهل أساليب المرأة الكسيرة القلب. بقيت اسمع مالم اسمعه، كانت هي تتحدث عن سفرها في البر والبحر، وأنا اقطع الفيافي للوصول إلى نشوتي، كانت ممانعتها أن تمسك بأصابعي العازفة، ولا تبعدها، تنظر بعينين رطبتين بالرغبة، ولم أك ادري هكذا كنت ابرر لنفسي بان القصة ستبدأ بسؤالٍ طيب، وتنتهي بحيرة مريرة، وما جعلتني إلا تائهاً بين دموع أهاجتني لمعتها على الخدّ الصقيل الدافئ، فتركت أصابع اليسرى تمسح، والأخرى تجذبها إلى غابة الصدر الموحشة، فكانت المساحة مليئة بالاتساع، مليئة بالألوان، والدفء الذي لا

تحتمل المرأة الامتناع بالدخول فيه، أن تمرغ انفها، وتتنفس ما تحتاج اليه من عطر الرجولة الذكي، كانت دموع المرأة تهطل بانسياب عفوي بليغ، ويشق الصخر كماء دافق. كأنني عرفته يستصرخني، تعال التصق بي أكثر، تعال أبللك بماء طاهر، أغسلك بندى الخسارة التي احتدمت كالغربة الكبيرة التي عشتها، بقيت استجيب، فوصلت أنفاسي إلى أذنها، وتكلل انجذابها إلي بالتوافق، أحسست بالبكاء متحولا الى نداء غنوج متدرج إلى أغنية تطبعها شفتاها على صدري، وأواصل استقبال كل ما استطيع استقباله، وكأن الدمعة الساخنة هي التي جذبتني لأجل أن أحرر المزيد من الأزرار، وأواصل الاكتشاف اللذيذ، لا اعبأ بالمكان، أو الزمان. المشكلة أنني محاصر هنا، ففي كل مكان أفكر في ما أريد انجازه، وذهني قد طفح بالفيضان، ولكن الظرف لا يسمح. تلفتُ في تلك المساحة الضيقة من السطر الأول، وودت التحرر من الشعور بالإثم والخطيئة والكبت والحرمان والضعف الذي يحيط بنا، وبالتالي منحها حرية التعبير عن نفسها، وذلك من خلال رغبة متكافئة. تقول آلتي الأغنية بطريقة تحفظها، وأنا أودّ أن امضي بلا قيد لرقيب، ذهنهُ قد تشظى لم يسمح لنفسه أن يناقض ما يفعله هو وما يفعله غيره، يظن ان الكلام، والتطبيل، والتزمير ينفي عنه جرمه الذي يسميه جرما للآخرين. (أواه ياوزيرتي) فكم لذة مقدسة ذبلت أمام نباح كلب شرس يريد تمزيق قطفنا الجميلة، وهي في أوج وداعتها، وتمسكنها، بل بذروة التصاقها بذلك الوصال، الذي يصل بالله ، فهو التحام صادق، ووصال حقيقي ونهج قويم، يحقق معجزات إلهية لا يقدر الكائن منا على نكرانها، فيعرف بان الله أكثر من حق، بل مطلق،

شامل، كامل. بتعاقب فصوله، في اليوم الواحد، بل في اللحظة ذاتها، يسيل من الجسد عطر يفوح بهوس، يواصل الغمغمة بالأسماء كلها، وتبدأ الغواية من الصفر، ففيض في الفم عطش للرضاب والريق الطيب، المسارَرة الغامضة، المتابعة النشوى، إيقونة بدء الأنين، وتوتر و إغتلام يتسلل عابرا حدود المكان، ويبدأ الإحساس بخطر المكان ضعيفاً، واهناً، فتمضي الكلمة منزلقة، متتابعة تتدحرج على السطر، تحس بنفسها قد تحررت من قيدها، ولابد لها أن تحقق معناها، وتنتشر بذهن متلقيها، أن تحطّ على قصدها كالصقر المنقض على فريسة ممكنة، على الرغم من كل هم، فالكلمة تواصل الفكرة، وثمة استسلام تلاحق، لأنها أيضا أخذت تحل أربطتي. وكلما نزلت أكثر تبعد يدي، تؤجلها إلى حين تريده، شفتاها صبهما رحيق عطرته الكيمياء، واصلته الفسلجة، كأني اطل من شباك مفتوح ويضرب نسيم عليل برغم الهواء الذي انقطع، وبقيت متعرقا، ينزُّ مني الماء متواليا، وتتلاحق أنفاسي كأني ارقى سلما يبدو متعبا عند الصعود. قالت: وقتنا ضائع، وصدقت ما قالت، فلو طلبت ما لا أستطيعه، لقبلت من اجل أن الثمّ النهد النافر المستفز بشفتين متعطشتين، وقلب ظامئ. تحدثني عن حنان فقدته وها أنا أعوضها، كانت تجلس على الكرسي، فهمّت بالوقوف، تحسست طراوتها بانتصاب، كأنه يوشك أن يهمّ بخرقها، وبقيت أوزع القبل الصغيرة المتفجرة على صدغها بأحلى اللهاث، وأحلى الارتجاج، فمسحت على حلمتها بشعر صدري، وأخذت الثمها الى حدّ إني وجدتني أودّ أن أمصها بلذة تكبر متفرقة في كل جسدي، فلم أجد ما يعوق أصابعي إلى ثغرها الذي تلمسته رطباً، يفور بالطيب، فأردت أن أمزق القماش الأسود، لأنه أبدى

ممانعة، دون أن أوقف الضمّ الأكثر الأحر، فلم أشأ مقاومة الحاجز العصي، فأزحته من تحت إلى جهته الأخرى، وأفردت مشفريه الناعمتين الورقيين، ودفعت به إلى العمق المهول اللذة، كأنه لم يكن يحتاج إلى كل ما عندي من قوة، بدا واديها يفيض علي نعما لا حد لها، ومتعا لا تبدل بأجمل الأماني، فانفقّ علي صوتها يطلق مالم استطع عزفه بآلتي، فاهتز بقوة، ولا أريده أن يفلت من مكمنه الساحر المهيب، وهو ينجذب متحسسا رقائق قلبها النابض بحرارة، يتحسس جدرانها الضيقة، واللسان قد انعقد باللسان، فهي اول مرة أحسست اني سأعود للتدخين، لأني قد أدمنت عليها فيما مضى وفارقتها بصعوبة، فمذاق رشفها كله سجائر، وحلوى، ونسيم. لحظتها لم اسمع إلا صوتها يلج إذني أن ادعه يتحرك بعنف، وان لا أوقف عطائي، وكنت به أتحسس الجوف الذي تمرح فيه الروح، فأوغل بجوفه تأخذني ليالي سحر ليست كليلة مررت بها. تحركنا متهيجين بقوة اكبر، حتى نزل فيها، مدرارا، كل مائي، اسقيها لتقول لعلك تزيدني أكثر. انتبهت إلى الباب، انتبهت إلى الشباك، وانتبهت إلى الورقة، فلم اشعر بها إلا مبللة، وأنا عار مرمي بقرف على قارعة ساحل النسيان.

وبدء حياة جديدة مع امرأة غيرها.

بعقوبة

٢٠٠٤/٥/٧

موسيقى قصص الحب
(إلى بليغ حمدي في ذكراه المتجددة)

١- عزف

ت لي ذاتُ مرة أنها لا تريد الزواج مني، برغم إنها تحبني جدا.لم
صدق ما تجرحني به، وقف الزمن لحظتها عند حافة حادة مني،
يوما بعد يوم حتى غنيتُ قصتي معها قدر ما استطعت إليه سبيلا.

٢- وطني

مدى الليل الحالك بقيت أُلحن في كل ساعة أغنية، وكان العدوّ،
، وكان الوطن يسير. كان الوطن يأخذ مني حبي الآخر الذي لم
وطناً آخر.

عشق

ت بموسيقى وكلمة. كنت انظم شعرها بكلمات كانت محفورة في
ولحنتها، بصبر جميل، لذا جاءت كأنها لن تسكت في ذهن من
ا.

٤- العود

حقيقٌ بي أن اعترف بأن ما اسمعه في هذه الدنيا من أصوات أحاول مجاراته، بآلة العود. كنت فقيرا، و لا امتلك واحدة، ولكني كنت احمل عليها حتى تنفسي. كنتُ اطولُ الآت الموسيقية كلها، ولم يمنعني وتر مقطوعلم أكن اقدر على أن أوفر ثمنه..

٥- المسافة

بقي يحنُّ اليها، وحبهُ يزداد، وكلما سمع نغمة صوتها في امرأة، عشقها، وذاب حبا بها، وكل مرة يتذوق الحب وكأنه لم يذق ذلك الحب والحنين.

٦- حب آخر

في زمن كان يصعب فيه ان يخرج مغن من بين زحام عمالقة القرن في قرن الموسيقى، استطعتُ فيه ان اجهر بنغمتي.

٧- الأصدقاء

كان يحبهم حبا جما، وكانوا يسلبونه نقوده بحجة انهم يحبون فنه، وهو لا يفيق من سكرة الموسيقى.. يعطي بلا حدود، ويستمتع بلا حدود بموسيقاه، وأصدقائه.

٨- الأوراق

بقيت أوراقه تملأ الفضاء نغمات في الحبّ الحق. ويقرأ منها العاشق لمعشوقته، والبطل لأسطورته، والابن لأبويه.

٩- طائر

ينام عندما أصحو، وأصحو حينما ينام.. يحتضنني بشوق، ويعيدني إلى غلافي، كآلة صماء، لا تعني أحدا البته، ولكنه كان يقول من أوتاري ما لم يقله بي احدٌ من أقراني. كنت أحبه، لأنه يسافر بي، ويأخذني طائرا معه، بين يديه..

الدروب التي لا تتصل بطريق

وقفتُ أتأمل صرحها، وأنا اشق نفسي في إحتبال النشوق، وكان عندي ليل بهيم يحضره إخوة تعساء، وأهل لا يقيسون ظهر المجن إلا بما يرونه. وهم لم يروا إلا ظهر البعير، ولم يقولوا قولا ابعد من سنامه. بقيت ارقب السهل الأصهب الشذيّ بعطره.. ثمة محاور أخرى عليّ أن إنظم سردها.. مثل القدّ واللثم، والأنفاس الأخرى.. كانت الساعة عندي تساوي جدلا بما يساويه الليل من انجاز، وكانت ريح باردة، وكانت أيضا ذئبة جائعة تجوب الخيام باحثة عما يجعلها تواصل الليل بالنهار، ارتجل الخطو العابث، الحمى تتواصل على من معي، وما عدتُ من لهاجي أبدا حيث اختليت مجبرا على ان أكور نفسي باتجاه جنين يعدني بالأمل. عصفت العاصفة وقلبت كل المكان كأنها شرطة تبحث عما توده.. كنت على يقين باني لست هدفا لها، ولكني كنت أقوم واقعد واحلم وأتنفس عبر خيط من ذكرى يأخذني إلى ذكريات تتواصل عندي بالأشياء الأخرى.. الصمت كان قاتلا أبديا لو يدخل عليّ لأنه كان عندي أمل بأنني الملتهم ومعي الضعفاء اللذين يقرون شجاعتي التي لا امتهنها.. بقيت ارقب الصدى القادم من العويل، وكان الليل قدما في البرد الذي اثلج قدمي وأيبسهما..

بقي الصباح يشق رحلته البطيئة، ولم يكن أفق هناك يدل على أمل قريب...

كان الصمت موحلا بتراخيه، والوجد مذبلا كل مآقيه..

قالت تهمهم بنومها، والحمى تواصل عليها هذيانها.

الأقداح التي ظننتها أقداحا اهتزت في آنية المساء الخائبة.لم تحو حتى فتات وجبة منتهية...

الليل يتواصل، وأنا أتحسس ما حولي، واسأل نفسي ماذا لو هجمت عليها وأنا في الظلمة الحالكة..أناور حاجز الظلام بما لا ادري..

كم أتعبني هذا الضياع المتناهي في السر الذي لا يعادله سرّ آخر...

لا بندقية من حربي السابقة ولا إي افتراض أقاوم به... هل استسلم؟

لا شرق عندي ولا غرب أتأمل به بعدي عبر المكان، والزمان معلق، ومهدم بالرعب.

الظلام ينشر فوضى من الحس المتواصل بثقل الهواء.

البرد يمرّ عاتيا في الحواس ويغرقها..

بقيت انظر لوحة العماء الكثيفة، وانتظر موتي...

بقيت وحيدا انتظر حتفي.

بقيت اكتب ضعفي كانسان وحيد.

نـهـض الأب

كالأمل نهض الأب العتيد، من عفن ممزوج برائحة كبريتية بالغة الثقل، وساوى خصلات صلعته المتصعلكة في فضاءات ضائعة من يوم الهبر، غامض كبقية أيامه التي مضت دون مستقبل سيستحق الفخر.. متمنيا إبدال حرف (ص[1]) إلى حرف (هـ[2])، ومتنفسا بكل مساحة صدره الذي كان يخشخش مثل كيس مثقوب، و كأنه يشخب مذبوحاً بفوضى كل حروف الموسيقى المعزوفة في وقت واحد. نهض من فوق الركن البارد في الغرفة الوحيدة الرطبة المزدحمة بروث أولاده الغرّ الميامين، فأول مرة كان يشعر أنه يودع فراشاً امتص منه أطنانا من العرق في الاصياف المتخاذلة، ولم يصدق أنه فارق ذلك العفن وبقي متيقنا إلى الأبد بأنه تخلى عن ظله الذي تراكم في نقطة قطرها اقل من الصفر، وانه خلف فيها أطنانا من الأحلام المقموعة بألف حاجز، و قليلا من رائحة (يوريا) السجن الانفرادي التي تعود عليها انفه بديلة رائحة الشبوي الليلي التي كلما كان أيام زمان يشمها في طرقات بلده وأهليه.. يتذكر امرأة غاصت ملامحها من البعد السحيق قد ضاعت كالأمل الذي كان يملؤه.. يتذكر كالومض الخاطف الأشياء التي جعلته حيا، صورة، تلو صورة، كما يتهيأ المحتضر للموت، فأول مرة عاوده إحساسه بأنه قد ظلم جوقة حشرات

---

[1] حروف لا معنى لها ربما تعني صرصر..!

[2] حروف لا معنى لها ربما تعني هر...!

طيبة كانت تعيش بفضل نومه الطويل، ذلك الظلم الذي يفكر فيه سيستدرجه إلى تغيير في قراراته المستقبلية، فعهد الظلمة الدبقة في كل الأرجاء، بدأت تذوب كالجليد بعد أن كانت تغلف الألوان المفتوحة بالحزن المغلق، ولكن الزعيق الهستيري المتواصل إلى أذنيه هديرا، بقي يدور في الذهن كالزلزال،لم يكن إلا انعكاسا واضحا لنقص في الطعام، والاوكسجين.... الجوع الذي حجر معدته الخاوية قد جعله يعرف الطبيعة البشرية، التي تنفجر من أي تصرف، وربما تؤدي الى كوارث ليست في الحسبان.. برغم الألم نهض مقاوما صليله الذي كان يصل في كل جزء من جسده، ليس من الم بعض الشظايا التي بقيت عالقه في أحشائه ، ولم يقدر الطبيب الجزار على انتزاعها، ولكنه وجع آخر جعله متطوحا في الفضاء، يلامس سديميا الزمن الرخو الذي بدا بالعدّ التصاعدي نحو الاندلاق.. نهض كالمتعافي، فتيا في مطلع عمره الذي تعطل عن التفتح في السابق، وهولم يكن قط متفتحا كهذه المرة.. منذ أن سُرح من جيش (القادسية)، وجيش (أم المعارك)، ولا جيش (استهلاك النخالة بدل الطحين).. أيامها كان المرض يبخل عليه بإجازة ربما تضاف إلى دوريته التي ما كانت لا تأتي إلا بشق الأنفس، وفي السجن بعدها بدأ يفاجأ بكل شيء، ومن ابسط مجهود.. نهض مجابها ألوانا براقة مليئة بالبهجة، مغمورة بالانشراح، فهو منذ قديم الأزل لم يعد يتذكر اللون الفيزياوي بحقيقته البديعة، وبقي متوعدا الأشجار بلمسها، و الطيور برؤيتها محلقة.. كأنها تعده بالكثير مما فاته، وستعوضه الكثير مما خسره.. لكنه بقيّ غير مصدق بعد أن تراكم عليه غبار السنين الثقيل.

و مضى يقول لنفسه:

لا شيء من الحقيقة.. كلها أضغاث أحلام، وستنجلي حتى أصاب بالصدمة ككل مرّة.. فأعود إلى ما كنته وربما اغرق في عطنة أكثر زنخة مما كنت!.. ولكني بقيتُ متمنيا إبدال (ص) بـ (هـ)..برغم كل شيء.. وسينجلي الوجه الحقيقي..

لكنه الآن أول مرة.. يبتعد عن الحائط لانه لم يعد يظنه انه ينقل أخباره التفصيلية إلى ما وراء الجدران، و تنفس صبحا بعيدا، وتنهد كأن قصيدة جاءته كحلم نوم طويل. كان الصوت يفحّ كأفعى، ولكن المعنى، كأنما في هيئة ملاك بوجه دائري.. حاول ان يجد له اسما نقياً يناديه به، ولكن الأسماء كلها صفات لم يك يدري إن بقيت بمحتواها، ومازالت تعطي معانيها، أم لا.. كاسمه (سيد الهوى).. كالأمل الذي هو كالملل الذي نهض من الهشيم، وبلّ ما استطاع اليه سبيلا، من بعد تلكؤ، وبعد ترقب.. دام حبيسا صدره، فأنه كان يخشى الجدران التي تدبّ فيها اللاقطات اكثر مما تدبّ فيها الرطوبة والعفونة.. تلك اللاقطات التي يخافها من اكثر من أربعين عاما خلت بالفاقة والحرمان، ويملأن ثقوب العالم من حوله.. بقي يقاوم الشدّ إلى الأرض ليس من الجوع المؤلم وحسب، ولكنه فقد الكثير من مجساته البشرية التي كانت مقررة له من الإله، ولم يستمتع بها كبقية الخلق المعافين، فلم يكن قد ذاق الثمر الوفير وغيره من بقايا أحلامه.. كالأمل تصاعد النسغ في الأشجار، وكأن الحدائق التي تراكمت فيها النفايات قد دبتّ فيها حياة على حين غرة.. فذلك جاره يمسك قصبة طويلة، ويمضي قدما في مدها إلى أقصى ما يستطيع لاجل أن يفتح صنبور الماء.. ورجل آخر اخذ في كيس يجمع الأكياس والأوساخ وما

استطاع إليه سبيلا. وراح الآخر يقلب ما كان تحت قدميه، فأنه كان فلاحا، واصبح مستعدا لزرعها. ولن يحيد عن عزمه اللبيب فيما يحبه حبّا جماّ. كالأمل تسربل مقاوماً القيد الوهمي الذي كان يحسه يقيد رجليه، ويثقلهما، ولم يكن رؤوفاً بل حتى مازال يشعر بشدة حزّ الحبل القاسي في مكان الربط، وربما احدثت التهاباً مزمنا سيسبب له معاناة إضافية. وجهه ثقيل في تقاطيع واضحة.. ربما يشبه فأراً مفزوعاً قد فرّ من قطة شرسة. كالأمل المتنفس دبّ الهواء في صدره مجدا، وراح يمدّ ناظرين ملأهما الكلل و الإحباط إلى الأفق البعيد البعيد.. حيث اخترقت عيناه الجدار، وبقية الجدران المتواصلة الكثافة.. كأنها كانت تتناسل أمامه لتنجب جدرانا أُخر.. تتراقص أمامه، و تتغازل بلا حياء منه بعد أن تعودته دون أن يفارقها. كالأمل الناهض من الهشيم و كأنه حيوان خرافي نهض وهو يطقطق رقبته التي تخشبت فقراتها، وثمة معاناة إضافية في كل جديد يواجهه. تلمس وجهه، ووجد فيه شقوقا لم تك قد بقيت كدمات لا طمر لها، والزحف للزمن الكثيف في لحظة الفرج. كالأمل الكثيف تراقص رجليه في وسع فضاء من الدهشة.

٢٠٠٣

الضـــحك

بدأت اكتب ما كانت زوجي تخبرني به، وإنا لا اكاد امسك نفسي من الضحك، فقد أخذني إلى الاهتزاز، وأخذت تتصاعد بطني الكبيرة في تقلص وانبساط، فينقطع زفيري تارة، و يجلجل شهيقي تارة أخرى كما اشر انحدار صخور إلى عمق وادٍ غميق. فالضحك جعلني افلت القلم، وافلت الزمن فاخذ قلبي بعيدا عني. بقيت اضحك بلا قلب، عيناي احتقنتا ووجهي تضرج احمرارا، وطلبت منها أن تعيد عليّ ما فكرت به، مسحت دموعي التي اغرورقت عيناي بهما، بينما هي كادت تفقد أعصابها، وأوشكت أن تمتنع عن مواصلة قولها، فعلا؛ رحت أتوسل اليها أن تعيد عليّ ما سمعت وانا اشرح لها أسباب ضحكي، راحت حروفي تتراقص أمامي، مفلتة معانيها، وإنا أغوص في الكرسي الصغير المتحرك ناسيا أن الكهرباء ضيف يعز عليه البقاء.

- ما أحكيه لك يدعو للبكاء لا الضحك!

قالت؛ بان قرص الـ (سي دي) الذي رأيناه البارحة، والذي يظهر فيه احد المذبوحين في لحظاته الأخيرة، قبل الذبح، وهو يرتجل ندمه على ما اقترفه بحق الدين والوطن، من جريمة وخيانة، وبرغم ذلك جزوا رقبته بسكين وفصلوا رأسه عن جسده. وقع كضحيّة عملية نصب واحتيالٌ قامت

بها، مجموعة تسمى بعصابة (السندباد)، وقد جرت على النحو التالي، كان يسكن في شقة يملكها مدير شرطة النجدة، استأجرها منه، منذ عام ١٩٩٦م، ولما أراد المالك أن يزيد في قيمة الإيجار،لم يوافق المستأجر، وبقي يدفع مبالغ بوساطة المحكمة، وبقي ساكنا مع زوجه تحت وصاية القانون. ومن سماته كان ثرثارا، معتدا بنفسه، ومولعا في السينما، وما كان لا يروي بصدق كل ما يحدث امامه، ودائما يضيف إليها من خياله، ولا يصمت بل يتحدث بها إلى القاصي والداني. برغم عمله في شتى المهن التي ادعى أنه كان يجيدها، ويكسب ما يسد رمقه، وزوجه. وكان يحدث جيرانه عن عشقه الأزلي، بإسهاب، ويعيد أمام أكثر من شخص كيفية فشله في معهد الفنون الذي أنتج نجوما متألقة كانت تشاركه طوابير التسجيل في المعهد. وقد وصل إلى حتفه عندما وافق على طلب تقدم إليه احدهم بان يقوم بتمثيل دور بسيط مكون من حركة واحدة، وهو أن يجلس أمام كاميرا محدودة الحال والتقنية، وان يحفظ دوره جيدا، وعليه أن يظهر خوفه وفزعه، وان يعطي انطباعا بأنه مغرر به، فيبدي الندم الشديد لما اقترفته يداه، والاهم أن يبرز كل ذلك على وجهه، وسوف يستلم مبلغاً مجزيا لقاء إتقانه الدور، وحدث كل ذلك في اقل من عشر دقائق، أجلسوه مكتوفا على الأرض، مطأطئ الرأس، ذليلا، وظهر خلفه احدهم كان يحمل ورقة فيها قرار إعدامه، والثاني اخرج نصلا لامعا من جنبه، وراح يتكلم عن ما تقرر له أن يقول، ويضيف أثناء جلوسه على الكرسي، ما طاب له أن يضيف، مستعذباً أن يكون العلم شاهدا على كذبه، لأنه بثقافة محدودة، وعقل لا يدخله إلا الحماس في التكلم، وكأنه يجيد الدور المسنود اليه، والفعل؛ والذي لم يكونوا متفقين عليه هو ان

السكين الحادة، انطلقت وحدها، ولم تلتزم بالاتفاق المبرم، وقد غاصت في لحم رقبته، وطفر الدم كنافورة وبلل الجدران وتبللت اللافتة السوداء، المكتوبة بالأبيض، متحولة إلى الأحمر القاني الذي أضفى هستريا، الفوضى على المكان بصحبه. قلت: ا لم يصادف السندباد القرصان؟، وبقيت اضحك مقرقعا، وكانت بطني عربات قطار فارغة تتقافز فوق سكة الحديد. أما زوجتي الطيبة، فقد احتدمت كلماتها، وقالت في كلم يشبه الهمس.. كان احدهم يرتدي خمارا اسود، برز انفه الكبير من خلف القناع، وهو الذي قرأ بحروف مرتبكة قرار الإعدام، أما القرصان الذابح، صاحب السيف فكان قصيرا، والدم قد طفر إلى فمه وراح يلعق بلسانه. والثالث بقي صامتا، وكأنه هو الذي خطط للعمل كله، فقد كان الوحيد الذي يحمل مسدسا ذهبيا في حزامه إضافة إلى البندقية الذهبية، الدم في الشاشة يغرق حتى مفاتيح التلفاز، مثل نافورة.

كان ضحكي متواصلا برغم البكاء المتصاعد من زوايا العالم، والذي بقي يشمرّ دما اغرق البساط الذي افترش الغرفة المعلقة في الفضاء والتي أخذت تدور دورانا سريعا، كلما ازداد الضحك، مالت الغرفة بي إلى الجهة التي تهزّ بها كرشي المنزلق إمامي، فأرى بطني كما أفعى التهمت فأراً، وراح ينزلق إلى أسفل عبر حلقاتها لأجل أن يعصر فيهضم. (إن القصة تمت بعد أن تم اختطافها من قبل هؤلاء. تم تعذيبها تعذيبا شديدا وآثاره بادية على جسدها، وتم بعد ذلك كسر رجليها وهي حية، وتحطيم العظام بصورة بشعة مجرمة، وتم اقتلاع أظافر أصابعها تنكيلا،

وبطشا بما سببته لهم من خزي وفضح وإحراج وتعرية، ثم أقدموا على ثقب أجزاء من جسدها بالمثقب الكهربائي، وقد اثبتوا أنهم هم قوة منظمة، قامت بعمل متقن، وتسلمت عيادة الطب العدلي، مثبتة ذلك في تقرير تشريح للجثة بان جسدها كان مليئاً بالثقوب نتيجة استخدام المثقاب (دريل)، فقد عثر على تسعة ثقوب في يدها اليمنى وعشرة في يدها اليسرى. وثقوب أخرى في ساقيها وسرتها وفي عينها اليمنى). حاولت أن أوقف صوت الضحك الذي أخذت تتسع دائرته، واخذ وضعا غريبا يمرّ به جسدي، فبطني غير متوقفة عن الضحك، بينما أريد أن امتلك زمام نفسي، و لا استطع، كمن يريد ابتلاع نفسه، فأخذت حلقات بطني تتعدد، وهي تستطيل، وانا أريد أن أتوقف عن الضحك لأرى ماذا يحدث في التلفاز، وما تحدثني به زوجي الطيبة، كان القلم، قد سقط من أصابعي، وكنت أحاول إيقاف الضحك ولكن عبثا وبلا جدوى، ولكن (السي دي) يدور، ويعرض بلا توقف، كأن القصص تتوالد، كحكايات ألف ليلة، والقراصنة الأوغاد، ابتدعوا لي عذابا جديدا هو اني لا اقدر على أن أوقف ضحكي، وكأني انسحب بقوة إلى جهاز التلفاز، كالمسحور، وكأنه يبتلعني إلى علبته الضيقة، حيث كانت الأنباء تقول: (ووزع مصدر على صلة بجماعات القراصنة فيلما مصورا بكاميرا هاتف نقال، يصور طريقة قتل صحافية بالغة الجمال، بعد خطفها في ٢٢ -٢-٢٠٠٦م ، وزعم المصدر انه عثر على الهاتف النقال في جيب بنطال جثة أحد عناصر الفصائل المسلحة، وقد أفادت صحيفة (ذي صنداي تايمز) البريطانية إنهاحصلت على نسخة من هذا الفيلم، ونشرت التفاصيل التي تظهر كيفية قتلها، لقد كان استثنائيا بوحشيته، فبعدما خطفها رجلان كانا يستقلان

شاحنة قرب سامراء، حيث كانت تغطي لإحدى الفضائيات حادث تفجير المرقدين الشريفين، أظهروها في الشريط عارية إلى الخصر، ويداها مربوطتان خلف ظهرها، ولم تكن قد نزعت من رقبتها القلادة الذهبية التي بشكل خريطة، والتي كانت تضعها دائماً للدلالة على حبها لبلادها، بعد ذلك، تقدم رجل ضخم الجسم يرتدي زيا عسكريا، من خلفها غطى فمها بكفه اليسرى، وفي يده اليمنى سكين قصير لم تكن حادة، لترحمها، فحز عنقها من الوسط إلى الجانبين، وسمع صوتها، وهي تصرخ من الألم، وتقدم رجل ثان يرتدي قميصاً (تي شيرت) غامق اللون ووضع حذاءه الكبير على صدرها، وضغط على جسدها ثماني مرات متتالية، فخرج الدم بغزارة من رقبتها. عندها عاد الأول فأكمل عملية الذبح بقطع رأسها وإلقائه على الأرض، ومن ثم رفعه ووضعه على جسدها).

في تلك اللحظة وجدتني ملفوفا في البساط، وانكتم صوت بالضحك، وإذ بزوجي تمسك المكنسة، وهي تضرب بي على ظهري وتقول بأعلى صوتها:

(أفعى في البساط)!

حتى نهضت من النوم، مقررا تدوين تفاصيل الكابوس، من دون تفريط.

٢٦ أيار، ٢٠٠٦

ليـــــلة أخـــرى

في مطلع الليلة الدهماء، وقفتُ انتظارا أكثر من ثلثيّ الساعة يائساً من جدوى الانتظار، حائراً، ولا ادري ماذا سأفعل تحت مظلة الحافلة التي بدت مهجورة، فلم يبق فيها اليوم مقعد استطيع الجلوس فيه، وباتت تحيط بها الأوساخ المتراكمة من جراء الإهمال، فمنذ زمن طويل لم تطلها أيادي عمال البلدية، وقد تهيأ لي انها ستشكل بعد قليل مرتعا ليليا للكلاب السائبة، وسأكون ساعتها ضيفا للسخرية، والهزء.. كنت قد خرجتُ من داري لا ألوي على قرار استقر عليه، من بعد ان اخذني الضيق والملل، بقيت ماشيا حتى نهاية الزقاق، وانعطفت مرارا، ومرارا، متشجعا، خاطيا نحو المسافة التي كنت ادمنها يوميا الى دائرتي، ولكن الحال تغير الى اكثر سوء، وصارت المدينة التي اعرفها، وكأنها مدينة اقل شأنا من التي عرفتها ايام ذاك. بقي نصف ساعة على سريان حظر التجوال، سيمشش الخوف فوق مكامن الفضاء، فكلما خلت الاماكن من البشر، حضرت إليها المخاوف والظنون. لكن البشر هم السبب الرئيس لتلك المخاوف، قلت لنفسي:- عليّ ان اعود، فماعاد في العمر متسع لكل تلك المخاوف غير المحسوبة، وكأني كنت اقول لنفسي محاولا خداعها:ان المفلس في القافلة امين، فليس هناك من يترصدني صيدا ثمينا من بعد ان اجتزت سنوات عمري متعبا، حزينا، بائسا، وقد رسمت خارطة التجاعيد مساراتها المتقاطعة الغامقة على اديمي. بدا المكان من حولي

شبه موحش، تتطاير فيه الاكياس الورقية والنايلون، وتعبث تيارات الهواء في علب الصفيح الصدئة، وتقلبها لتحدث صفيرا مرعبا لمن لا يعرف مصدره. جالت عيني على حروف مكتوبة كشعارات. سياسية، واخرى توعدات، واخرى شتائم. بعضهالم يكتمل وبعضها تراكبت مع غيرها، وقد اعطت معاني جعلتني ارسم ابتسامة عريضة لم استطع الا ان اعيد النظر اليها، كاني لا اريد نسيانها، أو احاول ان انسى ما حدث في البيت، وقد خرجت تاركا بيتي لابني وزوجه، عساني ان اخفف من وحشة الذات بوحشة الامكنة.. كان هذا المكان شبه البعيد والمنعزل يقع عند المنعطف الكائن في نهاية الزقاق، فبقيتُ مفتعلا انتظار تلك الحافلة من اجل أن تمرّ وتقلني حيث لا ادري، كذلك حقيقة الأمر أني لا أريد سوى أن أبقى عالقاً في المكان الذي اخترته بوعي، وسبق إصرار، كأن جلّ غايتي أن اشبع فضولي المؤرق، وارقب ذلك البيت المطل على الشارع الذي وقفت انظر إليه من بعد إلى الشباك متشوقا لمعرفة ماذا وراءه؟، فمنذ تقاعدي لم أعرف الذي حدث بعد كل ذلك الانقطاع، وكل تلك الحوادث والتغيرات. اذ أشرقت في ذهني صورة تلك المرأة البالغة الجمال، التي كأنها نزلت، ودخلت فيه، لمحتها تنزل من سيارة الأجرة، تلك المرأة.. تلفتت يميناً، وشمالاً خاشية أن لا يراها أحد، ولم تكن متخفية بملابس تجعلها غير معروفة.. فلم تكن ترتدي وشاحا، أو تغطي كتفيها الناعمتين بإيشارب، أو منديل ما. كنت اراها بجمال ستهبني به سعادتي، وخاصة أنا رجل قارب القطار أن يتركهُ وحيدا في محطة مجهولة، غامضة المصير.. كانت امرأة جذبتني من البعيد، و لن تمرّ في حياتي مثلها. كان شعورا غامضا يلفني، يجعلني أسير تلك القامة الملفوفة بالسحر، وبقيت مداريا الخجل الذي سورني مترددا، وعازما في الوقت نفسه على تحدي كل مالم أتوقعه، ففي

بالي بقيت معزوفة (روميو و جوليت) تدور في فضاء رأسي، متطايرة في حلم يقظة. كان النغم متتابعاً يطوف الخيال، كأنه يعزلني بتلك الحلقات الوردية المتصلة، المتتابعة بألوان قوس قزح بهيج. ولكن ذكريات البيت تطاردني، زوجة ابني جعلت بيتنا جحيما لا يطاق، تروم الطلاق، وما عرفت سببا مقنعا يبرر طلبها، كل مرة كان يتصاعد شجارهما الى حدٍ بغيض. يجعلني اهرب من كل ذلك التوتر العصابي حيث هذه الخلوة. رحت أحدق جيدا في النافذة التي غطتها شجرة سدر مسنة تجاوز عمرها الخمسين عاما، دققت النظر إلى قلفها، وهو يكشف من تحته لحاء غير لطر. تنبهت الى رجل كان يتقدم نحو مظلة الحافلة. فتشجعت مدققا النظر إلى بشرته، يبدو في الخمسين من عمره، ارتدى بنطالاً عليه بقع أصباغ جدران، فأيقنت انه عائد من عمله إلى بيته، جاء لينتظر معي الحافلة التي لم اكن اصدق إنها ستجيء ابدا..لم انتبه إلى السيجارة غير المشتعلة في فمه، إلا عندما طلب مني بأدب جم أن أشعلها له، واعتذرت، موضحا له أني تركت التدخين منذ مدة طويلة.. كان شاحبا مدمرا بوافر مطر حزن متدفق من أعماقه.. قال انه لا يدخن في اليوم الواحد اكثر من سيجارة واحدة.. أثارني ذلك، وحفزني إلى سؤاله:- كيف؟ أحاول أن لا اوه ينتبه إلى أني ارمي النظر على الشباك البعيد، الذي غطت الشجرة الوارفة جانبا واسعا من جهته الأخرى. بقي مستمرا في الكلام دون أن يرفع نظره إلي:-

— هذه أول سيجارة سأدخنها؟..

أوشكت أن أتهكم في القول، لكني انتظرت أن يكمل ما قاله، فوجدته منتظرا كيفية وقع كلامه عليّ، وينظر صوب المكان الذي كنت ارقبه. وراح

يزفر بضجر محولا نظره إلى الجهة التي تقدم منها الحافلة.. بدا الشارع طويلا فارغا، والبيوت في نهاية الشارع متراصة بأشجارها.. جعلت الضوء في الشارع شحيحاً. كأني تسلقت الشجرة بناظري مركزا نحو شباكها متابعا ومضة ضوء (نيون) لم يضئ من أول ولهة، لكنه في اللحظة التي اعتقدته فيها غافلا عني فاجأني انه اكتشف ما كنت أصوب إليه نظري..

فقال يسألني بصبر نافذ: يبدو لي أن الحافلة لن تجيء أبدا في مثل هذه الساعة؟

قلت إن رجلا كان هنا أكد لي أن الحافلة آتية بعد قليل.. وستقل عمال المصنع الذي في بداية الشارع.. إلى مناطق سكناهم، فضحك بمكر؛ فعرفت ان كذبتي غير نافذة، ولا ادري كيف اخترعت قصة الرجل الذي قال أن الحافلة..آتية..

فقال مؤكدا زعمي:- فعلا إن البيوت اغلبها معامل أهلية..!..

جعلني انظر الى عمق الشارع البعيد باغيا التأكد.. فقلت مع نفسي:

- حتى الحلم بالمرأة قد تفند!.

عندها أردفت، متسائلا: هل تعمل أنت في هذه المنطقة؟..

- مع أحد المقاولين في بيت عند تلك الناصية وانام هنا عند هذه الزاوية!

بقيت حائرا. بماذا ابتدأ سؤاله؟ ورحتُ استعيد ما حدث لي بالضبط، ولم يتبدل من قراري بعدم العودة الى بيتي شيء.. في تلك الاثناء مرقت من أمامنا سيارة كانت سريعة جدا لوح احد منها بيده معلنا إشارة فعل بذيء، فعلق الرجل قائلا: (إما سارق لها أو يكون لا يعرف السياقة بصورة

جيدة.. يبحث بين فخذيه عن الكوابح).. بقي يضحك حتى مرّ رجلان آخران كانا يتكلمان بصوت خفيض، بينما الرجل الأول يتوكأ على عصى لبدي انه أعمى، ومعه رجل صغير الجسم، ناتئ العظام، بقيّ يكمل حديثه مع صاحبه: (بأنها حزمت أمرها مع صديق لها يعمل في سلك الشرطة، فرتبت معه خطتها الجهنمية.. عندما يكون الضحية في سريرها، يكون ملزما بالجرم المشهود.. ولاجل ان تنقذ سمعتها تدعي امام القاضي، على الشرطة انهم بدون أي حق قانوني، دخلوا عليها البيت، وان الرجل الذي معها هو زوجها الشرعي، ذلك يضع الشرطة في حرج، فيطالبون بورقة تثبت صحة ذلك الادعاء، ويكون ذلك الطلب عن طريق التبليغ الرسمي، فيضطر الضحية لتوكيد الادعاء بدون ورقة، وفي اليوم التالي يقدمون ذلك المستند.. يتفقون مع (السيد) الذي يدوّن عقد النكاح، مقابل مبلغ من المال.. ليؤكد أن الزواج كان شرعيا تاما، وتاريخ تسجيله قبل موعد (الكبسة).. وبتلك الورقة يكون الضحية تحت السكين، تحت طائلة القانون، وقد فرضت نفسها زوجا لها حقوق عنده يجب أن تنالها. بقيت مصغيا لما قال الثاني معقبا بانفعال:

- ربما جرى معه أكثر..

فأجابه الأول بعجالة:

- أريد إنقاذه من تلك البراثن الغامضة.. كونه شخصا ممتازا عرفته في جبهة الحرب.. تصور لقد حملني جريحا من جزيرة (بوبيان).. حتى وصل بي إلى مدينة (الناصرية)..لم يتركني لحظة واحدة..

انتبهت الى الرجل الذي كان بجانبي، قد اختفى..بحثت عنه، ولم تدل مكانه، ولكني بقيت استمع الى ما كان يقوله الرجلان:

فهمت..

واصل الثاني:

- أظنك تدرك كم يهمني أمره؟..

- أعدك باني سأدرس القضية بإمعان.. وحتما سوف أجد لك مخرجا!

وقفا قليلا متلفتين احدهما يتلفت نحو الآخر، وهمس احدهما بصوت واضح، بعد ان القيا السلام عليّ:

- من فضلك هل تمرّ الحافلة من هنا؟..

تلكأت في الإجابة لكن الرجل الذي كان بجانبي خرج اليهما قائلا مع ابتسامة:

- لا تتعبا نفسيكما معه هو الآخر ضيفنا هذه الليلة.

كذبة فاقعة للزمن الفاقع

ما عليّ إلا أن أهولَ ما أتخيل، وأستمر في حكي الحكايات المتواصلة، دون توقف، وان اجعل منها مشوقة بما يجعلها ترغب في البقاء، والتشبث بي..

لكن خطواتي كانت تعبر بي حيث لا أدري، عشقا أخطو.. حلما أخطو.. كنتُ مجتازاً لمسافات هائلة، خيال يخترق لجج البحر الذي لم يره العراقي، والذي بقي بحيز حروب لم تعطه اكثر مما يعطي البحر الضاحك. للبحر شفتان لامعتان بنسماتٍ مازلت ادخل غمارها، أتخيلها تهب حيث أدخل الى امكنة مجازية فيها ائتلاق الذكرى، وفيها التفتح، الذي فاتني منه الكثير. ولكني بقيت سائلاً كيف لي أن أبقي خزين ذاكرة مليئة بالضجّ، والتناقض. كيف لي أن أبقى بعري أمام مرآة ذاتي؟... بقيت أرقب سنين عجافا تركت سنابكها كتجاعيد على جبهتي التي مرّ عليها الضوء، فكشف ما كشف، وأنعش خطوطاً بينية، اخرى، تعامدت بالحزن وفضحت تعبي الدائم، وحيوتي الزائفة.

كنت، قبلها، أقف مبهورا بوحدتي، دون امرأة اتنفس بها حرية رجولتي، توغل الصبح البهيج في العتمة، امرأة تذبح ما بقي من ثقالة.. تبقى على الصدر، هنائة، حبيبة تنزع عني الصمت المقيت، فتخرج

كشذرات الضوء المندغمة بالمعاني، تبقى تفحّ بعطرها كالكلام الممتع اللذيذ.. امرأة من عسل، ملونة كحباحب بهجة تطمس كآبتي.. تزيح الماضي بالحاضر. تذوّب الحدود، يتسع الزمكان...

كان الصمت موحلا بالتراخي..

(رأيت زيتا طافحا على مائي الذي نويت أن أشرب منه حدّ الارتواء حدّ الخلاص).

- ما عساني أن أفعل أن تذكرت لك أحلى ما يمكنني تذكره...

- حدثني عن مستقبل يأتي.. لا عن ماض يتراجع..

- الأجمل الذي عندي لا يحرك الأجمل الذي عندك.. برغم ذلك اريدك ان تبقي.. ان تفرشي الحلم بالورد.

- تجنب الكذب وسوف لن يخيب الطريق إليّ!.

كأنها ستمنحني الفرصة الأخيرة:

- سأظل صادقاً فلا تهربي من وحشية حقائقي؟!

- اتمنى عليك أن تتجنب الشاطحات؟ ان تحدثني بلغة عصرنا الحالي.. ان تفسر لي وفق ما تكون المعرفة بالشيء..

- اودّ لك الحقيقة وحدك.. ولكني مليء بقصص الوهم.. ما ربيت الا على ما لا قياس له على ارض الواقع..

ثم ضحكت كفجر مؤتلق، انعش كياني بنسيم طيب. جابت عيناها وجهي كأنها في حلم.

-- لا تخذلني ارجوك، دعني احرر كياني من قيد حكايتك.. ابحث عن حضارة فيها موسيقى عن رسوم عن فن مدروس..

فتنهدتُ منطلقاً في تجاويف بؤرة وسعتها عيناي، لتحتويها. وبقيت أستدرج الظل الممتد إلى الحاضر، المتجدف. بينما بقي الليل الاسود الكثيف يوغل في امتداد الصبح الابيض البهيج، كأنهما يتصارعان.. يقاوم إحدهما الآخر، وما برح الأمن مفتقدا مذ كاشفتها بخوفي عليها من حقائقي الموجعة، فأردت أن أقول ان الحرب الاولى لم تستطع ان تأكل الثانية، او الثالثة.. أوشكت أن اعترف:

- دعيني مما كتبت من قصائد فالشاعر مع الشاعرة سجال يورث الاختلاف.. اما الحكاء مع الحكاءة فانه تحد يورث التنافس..

- اقول لك اني صارحت زوجي بقصتي فقلبنا لبعضنا ظهر المجن..

أصغيت لها، واسندت ظهري الى المكتبة، واذا بالرف ينهار، وتنجرف محتوياته الى الارض، فرفعته بكتفي، ورحت اضع كتابا فوق الآخر كي اصنع الكتب مسندا للرف الذي هوى، وكانت هي ترقب كيفية معالجتي للامر، وكانت تقرأ بصوت عال عنوان كل كتاب اتناوله، كتاب (الحيوان) للجاحظ،، شرح ديوان المتنبي، الاعشى، الجواهري، أدونيس، محمد عابد الجابري، كازانتزاكي...

سألتني: أ قرأتهم كلهم؟..

ولكني تفاديت ما أوشكت أن ادخل فيه من دون تخطيط سابق، فقلت في غمرة انشغالي:

- كان أبي مقامرا شهيرا قبل زواجه وكان معروفا أن وعد برغم عن كل الصعاب.. سبق له أن تراهن بان يهب غالبه في عراك الديكة أول مولود يأتيه!.

أكملت تصفيف الكتب، ثم استللت سيجارة، ورحت أتابع فضول عينيها المتطلعتين بانبهار، وقلت محاولاً استمالتها، لما في الحكاية من شدّ..

- ولم يخسرني وحدي..

وجدتها تغير الموضوع:

- ما زال المطر يهمي في الخارج.. نقراته على الباب كأنها تحلق بي.. تعال نخرج لنتمتع بهميه.. تعال نتخيل البحر الذي لم نره..

- البحر والمطر ابرز مكونات الشعر الحديث.. كذلك الحرب!

ابتسمت بمكر، وكأنها بقيت تستمع الى موسيقى عذبة، قد اخذتها مني، موسيقى تجعلها كالمأخوذة بسحر عظيم، كدت اعترف بان سحر الموسيقى اكثر فعلا، واوقع اثرا، لذ وجدتها غارقة في لجّها، ولم تجبني، فاندفعت معتصما بحصني مواصلا الكلام، من اجل أن لا يتراخى الجذب بيننا، وربما قد يحدث ما اخافه؛ فقد تهمّ في جمع أشيائها وتغادر المكان:-

- عيناك تذكرانني دوماً بعينيّ زوجة عمي!

عاودت ابتسامتها الماكرة. كأنها تغطسني في مداهما الكستنائي الرائع، أطيافُ أمنيات توشك أن تتحقق. بقيت منقباً في دهاليز اللمعة الساحرة.. باحثاً عن سرّ.. يجعل الحكاية لا تتوقف، وكأن الألف ليلة قد قلبت بيننا، لم تكن سوى (شهريار) يمنحني فرصة المضي في حيوية الحكاية.. صرت مغامراً ومجازفاً لابقائها، حتى تطيل المكث معي، سأبقى حيا دون ذبح، على الرغم من الحزوز البليغة. فكم من حرب تركتنا مذبوحين دون طلقة رحمة. فأن سكت عن حكايتي لقيت الحتف في الفراق. (سأحتقن، وانفجر)...عيناها ما يدفع للبئر بالماء.. حاولت إخفاء اضطرابها، بسؤال حذر:-

- ما وجه التشابه؟

- ربما فيض الأنوثة الـ ....

- حاذر أني أغادر المكان إلى الأبد..

قلت لها :- (كأني أستل سيفي، لأغمده في جسد الوحش المنقض علي)...

تداركت مقاطعة ما أردت، فأردفت بعجلة، محفاظا على ذلك الايقاع الذي كنت اظنه متوازنا..

- كانت في مثل عمرك.. في حوالي الثالثة والعشرين سوى ان حظها جعلها ترتبط برجل جاوز الحادية والستين كعمي....

اقتربت صاغية، أكثر.. (الموسيقى كانها صورت وحشا قد زأر معلنا تأهبه للانقضاض)..

- أحذر قد تسقط في كذبة فاقعة..

- أعرف جيدا بأنهالم تكن سوى حقيقة مائلة بعض الشيء!

ضحكتُ انا بينما هي تنهدتْ، ارتفع الطائران الساكنان صدرها، تأهبا كأنهما أوشكا أن يطبقا على فريسة بريئة..

- اكمل.. فما كان في مقامرة أبيك؟.

ضحكتُ بانتصار، وشاركتني هي بابتسامة غير عميقة آلمتني. كاشفة لي باني غير قادر بحكايتي الاقناع. بعد ان تعامد الظل حتى فاض لجّ الكلام، كالثرثرة، وفاحت منه نهاية، سقيمة. لم أعرف كيف بدأت الأحداث، لتنتهي!. كنت متيقنا بأني لو أجلت، فأنها لن تقبل، لترحل..

قالت: لو لم يستمتع (شهريار) بما كانت تبتكره (شهرزاد) لماتت كسابقاتها..

- سمعت من جدتي عن عمي أنه ذهب إلى الرجل الذي غلب أبي وأكرمه بديلاً عني قصراً منيفاً كان قد كافح من أجله خمسة عشر سنه إرضاء للرجل وأعادني إلى أمي..

قالت: (المهرة الصغيرة بدت تتضايق من اللجام)

كنت اعرف ان الصمت كلما يحلّ يخلف مجالا موحلا بالتراخي. زبدٌ من جنون بدأ يسيل ويبل شفَتي. أخرجت منديلي ومسحت مخفيا اضطرابي. خطوطاً متماوجة صارت ما بيني وبينها. الريح في الخارج، تصفر والمطر طفق على الزجاج والجدران. الليل انحل منه الكثير. فتحة قميصها ما برحت تكشف عن صبح بهيج..

قالت: (الذاكرة تنحل تدريجيا.. خيوط قصتك المشوقة تفلت)..

ثم حَلَّقتْ حقيبتها إلى كتفها.

فقلت متعثراً: - أود أن لو أكشف لك شيئا مهما عن علاقتي بزوجة عمي الشابة..

- قل ما تريد؟

واضافت: (الريح في الخارج، ذئاب، حروب، وشرطة سرية شرسة.. فما بالك لا تعدل عن عفونة هذه الحكايات)...

- عرفتها امرأة كاملة الأنوثة.. ناقصة الوفاء..

- ماذا تعني؟

- سمعت عمي يوبخها بعد أن لحظها كثيرة الاهتمام بي.. مخبرا إياها بالسرّ الذي دفنه طويلا.. سرّ شقيقه الذي ولد بلا خصية!

- تعني والدك؟

بعقوبة

٣١ تموز ٢٠٠٦

جثة قد تأجل موتها

حتى ان قارب بلوغ عامه الخمسين، إلا أنه بقي يعمل بجد كثور الساقية، يعمل عتالاً هنا، بناءا هناك، أو في الطلاء، وبالكاد يستطيع حمل لقمة بشرف إلى بناتَه الثلاث القاصرات، والزوجة الصالحة التي رضيت بأقل ما يمكن للإنسان أن يرضاه، وهي برغم مشقة دنياها الضيقة تتملاه في سريرها طويلا، كل ليلة ، مقتنعة برزقها، راضية في كنفه، تتأمله كحارسة ساهرة، مفتول العضل على الرغم من الشحوب، وجهه باسم في وجهها على الرغم من الحزن الكثيف، فقد بقي ظامئاً وليل القلب مخيم على طالعه إلى ابد الآبدين، محطوب في إنسية المرحلة، جراحه بليغة، وثمة آلاف الشظايا قد بقيت عالقة في جسده إلى درجة انه من الألم،لم يعد يحسن تذوق الراحة، ولم يعد في ذهنه معجم يفسر الأشياء، بمعانيها.. ولكل موضع الم من جسده قصة يتمنى أن يحكيها، ولكن حكايات الآخرين أقسى من حكايته، اغلب الذين أحبهم، وأحبوه قد إضاعتهم القصص، فصارت قصته تالفة، قياسا لما يسمع من قصص، فما من احد يجلس إليه، ويقص عليه الهم الذي أثقل عليه النفس، إلا ويجد عنده قلبه المثخن الجراح الذي يضطرب إيقاع دقاته من تعسف المرحلة التي تلمه، خوف معشش في كل الخفايا التي تحيط به، فيقال أنه قد عاش قصة حب عاصفة خلخلت خطواته وجعلته يتردد آلاف المرات، قبل

أن يتحدث إلى امرأة، يمر على أماكنهن كأعمى، ويسير بينهن بخطوات الملائكة كي لا ينتبهن اليه، كي لا يوقظن فيه مخاوف أخرى من تجارب، ربما ستكون أقسى، إذ تخلفت في قراره مشقات تركت سنابكها العنجهية مسافات أميال بما لا يقدر خيط دامع على ردمها، أو إخفائها بعد أن قلص حزنه الكثيف الابتسامة إلى الحد الأدنى، ودائما محلق في فضاء عزلته، كريم، سخي مع خياله، ويخاف أن يتكرر دخوله صندوق السيارة، (مارقون يركنون سياراتهم قرب السابلة، ويخطفونهم مقابل فدية كبيرة من المال، وإلا القتل المريع) فذلك قد يعني موتا محققا آخر، غير الذي يراه في الشارع، وغير الذي يسمع به، فصندوق السيارة يعني أخذه إلى جهة مجهولة وسيتم تنفيذ الإعدام به، عاجلا أو آجلا، ذلك بقي كابوسا يراوده، بدلا من حلمه بقصة حب يعزز بها حياته، فقد تنازل عن قصص الحب المتخيلة، التي كان يتمنى أن تصادفه يوما ما، من بعد أن تزوج وأنجب، وكان مؤمنا بان قصة حب عنيفة ستفاجئه يوما ما، لأنه بقي مؤمنا بان قلبه النائم خلف الأبعاد، لابد أن يتيقظ، ولا يريد أن يبقى معزولا في زحام العمل والموت، ويغرق إعياء بين مخازن التجار الذين لا يشفقون عليه كثيرا، ولم يجزلوا له العطاء، فترك وجهه خريطة كلمات أضاعتها المعاني، وأوهام تقلصت بالأحلام فهو منذ يومها بقي لا يقترب من اللحم الذي يعرضه القصابون، لأنه رأى الجثث التي نثرها الانفجار، وبيديه عبأ كيسا كبيرا مما جمعه من اللحم البشري، وهو لا يدري لمن هذا الكبد، المخلوط بالمخ، أو هذه اليد المفرومة بالحديد، أو تلك الساق المهروسة بالبارود، شاهد بأم عينيه ان اللحم البشري قد كان اقل احمرارا من لحم البقرة الذبيح، ويومها انقطع عن سماع حفيف الشجر،

والعصفور... انقطع عن المحيط وصار يفهم من حركة الشفتين ما تقولانه له، انقطع إلى أقصى الصمت في لجة الضوضاء، والتأتأة العظيمة، بقي يقول في نفسه (أصبحتُ كبيتهوفن لا اسمع سوى سمفونيات نفسي)، بقي يعمل بجد في وقت عصيب، ولم يكن يتنفس بعمله وهو يحمل بضائع الناس إلى سيارة، أو يفرغها.. حروفه عجلى بالتنفس، كونه يعرف ان الأنفاس عليه بحساب، وان تنفس الآن، فان اللحظات القادمة ستكون أصعب، بقي يكرر القول مع نفسه: (نحن جيل الخيبة!)، يطاردنا الموت الماشي بين الناس، ويركض خلفنا.. هذا البغيض الذي له رائحة زنخة، تفوح من الأمكنة، كرائحة لن تفارق مسامات الأنف، رائحة حاضرة بقوة لتثير الأسئلة (ما الذنب؟).. وتحدث ضجة بالغة على الرغم من خيوط الجريمة، المتقنة، برغم برودة دم المنفذ الذي يختبئ وراء الكواليس، وينفذها بإتقان، و(باردا إلى ابعد حد)... أيدي بصماتها واضحة، خلف قفازات تقصد المحو، تقصد الناس البريئة، تمتد تلك الأيدي لتمس الجيوب، وتصادرها.. أفعال قذرة... تصنعُ الموت المزخرف بالبشاعة.. موت يتواصل بالأسئلة، والأسئلة تتواصل ما بعد الموت، وتتفاقم كما الرائحة، فمن هذا القتيل؟، و(من ذاك) وكيف اخترق كل ذلك الكم الكثيف من الطلقات جثته؟ الصمت يسكن هذه الصورة التي لن تقول سوى ان المجرم يخاف الجثة أن تلاحقه، وهي كذلك سوف تلاحقه أبدا، وبقي يرى جثثاً تزاحم الطريق، تضيق على المارة خطواتهم، وتبتلع المسافات، جثث تبتكر للموت شكلا جديدا لتقتل في الحياة حياتها.. حماقة جهل مرّ.. كأنها قوالب سخية الخيال تحتجز المنطق، فكلما تكلم مع احد عرفه يمتهن الكلام العابر، ويتشدق بكلمات ليست

متواصلة برصيد خلقي، وذاته يفعل عكس ما يقول، فالأنفاس اغلبها كاذبة، والبحر الذي يسمع عنه يفيض كالأحداق بات كاذبا، وما من قطرة ماء منسية، فالبحر هو البحر والكذب هو الكذب، وما من ميت يعود إلى الحياة من الكذب، وما من حياة لا تبتلع الأحياء.. كأن المنطق هو ما يفتقد، كأن المنطق ميدان داج أشبه بدماغ هرستهُ سيارة حمقاء لرجل كان سائقها قد أتى إلى المكان مهموما، حالما، ساهما تجرهُ خطوات فكره أكثر كانت أكثر فعلا من خطوات فعله.. يضحك كما المجنون، فقد أتى ذلك الزمن المكان بسيارة أعدت للانفجار، و بخطوة أعدّت للانهيار، وبزمان تائه، رديء، لتنفجر عند حاجز للشرطة، والرجل عند حاجز للرجولة، وعند احتدام الوقت،لم تصب سوى الناس العابرة.. بقي يتألم: (الناس أصيبت بمقتل).. لقد وصل النفوذ الدموي، إلى كل مفاصل الحياة، وجزيئات الهواء.. إلى ما لا يصدق، فالأشلاء المتناثرة إلى السماء، هبطت إلى الأرض، وبقيت السماء تمطر دما وتساقطت منها أصابعا متفرقة، أعضاء بشرية، ولحما محروقاً، برائحة البارود والشواء.. بقي يخاف، وبسر يتنفس، من بعد أن رأى، عيونا مقلوعة، رؤوس معبأة بالرعب، والفزع بلا أجساد، أجساد كثيرة غير متكاملة قد ضاعت بقاياها.. بقيت مبخرة وتطايرت متحولة إلى بخار، تسامت إلى دمار بالغ، والأحوال الرديئة تحولت إلى حفرة في الأرض لا اتسع قبرا واحد لهذه الأجساد.. صفير في الأذن، يلاحقها كعاصفة: ضوضاء كانت عالية، وكان الضوء ساطعا، وكان العصف رهيبا، وكأن الدنيا ضيقة إلى الحد الذي لا تتسع للبكاء.. يتساءل (ما فعلنا يا رب عفوك)، ذاكرته مليئة بتلك الصورة البشعة التي اختزنتها الطفولة بدقة وتكاد تشخص كل لحظة، بقي يتجول طائفا في

الزمن ينفصل كما ظله أو يستبقهُ إلى مراحل اكبر اتساعا من الخطوات، كل مرة يبقي سؤال إلى آخر المرحلة؛ (كيف مات الشوق إليك يا صديقتي الرائعة.. يا ذات العينين المدهشتين).. أيامها كان يحاول طمس أسئلتها بأسئلة اكبر، كأنها عصفورة مضيئة تطير في ليل ظلامها الدامس، تضحك متناسية، وتجره خطواتها إلى الخيلاء فيطبع على فمها قبلته الذكية.. يحول هدوءها إلى نار من الغريزة، ليدمن عليها.. طعم القبلة يملأ روحه.. القبلة تدور.. تحيله من مبتدأ إلى خبر، والموسيقى تشتعل، من بداية إلى نهاية. يقول؛ (أتسرنم، أتسلطن، اطفوا بالخيال، احلق عاليا في فضاء خديّها المحمرتين كتفاح ناضج)،.. تسبل عينيها، وتمدُ شفتيها الكرزيتين رغبة أدركها جيداً، يسأل نفسه: (هل ينفع السؤال؟)، تذوب خلاياه المتوقدة، عاطفته ليست عمياء إلى ذلك الحدّ، ولكن الحلم يقتله أيضا، يرى العالم كله بشفتيها طعما يجري إلى حيث تبتدئ حريته، يهدئ نفسه، يحاول أن ينسحب بعقل بدلاً من انفجار قد يحدث، فما زال يرى وجع اللذة على أصابعه، ويسري كلما بقيت معه في الحلم، الحلم تعويضا عن تكاثف الخيبات المتواصلة، حدّة هذه اللحظات.. حدة هذه الطبيعة، وسيد من يحتكم على قوانينها.. باتت قتيلة، من بعد تعذيب كثيف، نالوا منها شر نيل، (ولكن ذراعي طوقها، أو طوقي ذراعيها).. تدور عيناي في لمعتهما الفرحة، العصافير كانت تزقزق سيمفونيتها الشعرية، والنسيم الطيب بدأ يملأ الرئتين.. (أحسّ اني قد بدأت أحقق خطوة نحو السعادة القصوى التي كنت ارسمها، واحدد ماهيتها، أسأل من خلال الوقت الضيق والأنفاس المسرعة لمَ فكري مشوش فيمنعني من تمييز الأشياء.. ليلُ القلب يمتلئ به جسدي

المتفاعل مع درجة حرارة الجسد الذي يلثمني، عيناي تحاذران أن تستسلما لحلم كان الصحو فيه اقل، بمعرفة أقل.. كان صمتاً أقل بمحاورة أقل).. فما ذنب هذه الأجزاء أن لا تجتمع مع بعضها في قبر واحد، كبقية خلق الله، جثث أضاعت أجزاءها، أو ضاعت عن بعضها.. (اسحب نفسي تدريجيا من الحلم، تفهم هي الأخرى كل شيء، وتظل قربي صامته تؤلمني ابتسامتها الضيقة).. ليل القلب الظامئ المتعب بمشاوير الفكر...خذلته الترهات...تفلت أربطة الذاكرة، يبقى السائل الثقيل متناثراً على الإسفلت الذي يحوي الكثير من الذكرى، والحزن، والعاطفة.. كل شيء محض تذكر في هذا الرأس الصغير الذي يحوي أكثر ما يجب.. تناثر وتيبس.. (أسأل نفسي: إن كان هناك في مزيج السائل الثقيل بعض من الفرح، وقد يكون الفرح المادي الأول الذي يمكنني تحسسه).. الميت ينزل من سيارته الفارهة، ويلتفت إلي بقوة وكأني قد قطعت عليه حبل خلاصه، وتنفلت بيسر منه دقائقه، (كأنها تشغلني بسؤال، وأنا اهرب بعيداً عن سؤالها بسؤال كي أنقذ ما يمكن إنقاذه.. صوتها يؤجج السر المكنون المرّ، فأهزّ أبراجها العالية بهدير من كلمات خائبة: - أقول لا تجعليه يرضيك بهذه الصورة فأنت الأجمل والغاية النهائية، فلا تكوني بين عينيه الساذجة، الواضحة، السهلة؛ فيقضها ويفجر أسرارها ساعة يريد.. حاولي أن تكوني الجوهرة الغامضة ليتسنى تحقيق ما تشائين).. ضوء جميل.. يزدرده إلى عمقه المكنون الداجي العميق.. المعرفة قوة.. قوة ليل القلب بما يمتلك من معرفة، (كانت قد بقيت في الشارع، لقتيل عائد إلى البيت، وأضاعت الطلقات مسيره، بعد أربع أو خمس منها، بقي يشخر كالخروف الذبيح.. تمددت وحدها مخيفة

كل المارة، إلى جانبها خيط من الدم، وقد سار لوحده إلى الساقية، واتحد الدم بالماء الآسن، ولكن الشخير ارتفع عاليا.. ثم حضر المشهد من الجهة الأخرى رجل آخر، صوره بالموبايل، وبعد ذلك بصق عليه، أي جثة مثيرة هذه؟، وعاد الأول واضعا فوهة المسدس في فم القتيل، وأطلق من جديد رصاصة في فم الجثة وتفجر رأسها، وتناثر بعض الدم على ثياب الأول وبقي (الموبايل) يصور، قد افترش وجه القاتل، ولكن القتيل انتفض بقوة أكبر، ومرة أخرى، في كل مرة يرشق الدم وجه القاتل، والقاتل يبصق فوق القتيل..)، كان من يرى يروي لي بلا خوف بقي يقول؛ ان القاتل قد اخرج شيئا من جيبه ورماه قرب الجثة، لم تكن رسالة، ولم تكن هوية، ولم تكن سوى حاجز يربح به الوقت، ويضيع الدليل، غاية منه تغير مسار الأسئلة، ولكن الأسئلة لم يكن لها سوى اتجاه واحد لن تحيد عنه، وان سكتت الناس يوما، فإنها لن تسكت إلى الأبد، و سوف تقول مالم تقله في حينه ان القصة حقيقية، وقد جرت وروت نفسها، (فمن بعيد كانت الشرطة تراقب الحدث، وربما كانت تخاف الاقتراب، أو لا تخاف.. تعرف أو لا تعرف، تعرف القتيل والقاتل فلن تخافهما مستقبلا، بقيت في لحظة محايدة مضطرة الى الحياد.. (كانت الكلمة صورة تطوف فوق المعنى لتحرره من الاندلاع، كصدمة ستوقع المخاوف)، ولكن السوق بقي ينتظر الناس بلا سؤال، فمذُ كنت صغيرا.. كنتُ أحصي عدد النجوم فوق دارنا، وبعد أن كبرت صرتُ أحصي النجوم فوق الحي كله، فبعد الخمسين اروي للناس قصص الدم والجثث الخائبة التي لا تدفن مع بقية أعضائها، وأقول في تعب ان أبي كان يمنعني من ان أروي ذلك.. ينتصب أمامي بخذيه الهائلتين مشكلا، مثلثا متساوي الساقين مع الأرض. أقول هذا

مثلث.. فيضربني، ويلعن حظه؛ ظننا منه باني أشير إلى أسفل بطنه، فاضحا عورته، والناس تتبادل القول: (كل من خرج من بيته مفقود، وكل من عاد إليه مولود).

حكاية الأسرة

-١-

تبا لهذه الذكرى التي جعلته مؤمنا بأنه لن يستطيع نسيانها أبدا، والفكاك منها، فقد بات حضورها موقظاً لزحمة انشغلات ملحة الحضور، لزجة، طائفة في ذهنه المتوقد حنيناً إليها، فما عاد يحتمل، فغطى عينيه بكفه، وراح كمبحر في الزمن يتذكر ما كان طاغيا، معزوفة تضيق بذاكرته، تزاحمه بإيقاعها الذي ملأ ذهنه؛ فما كان يحضره، بيسر إلا ليغزوه، ليجهز عليه بالندم، كأن بتذكرها قد كشف ما كان مخفيا بين الطيّات الثقيلة، المتكدسة كموجات منعته بحيوية عجز مقيد، استدرجته الأحلام، فوقع أسير نشوتها كما فريسة عنكبوت. بقيت تطارده الكلمات التي علقت بذهنه منذ أكثر من ثلاثين عاما، بقيت قصتها شاخصة في كل سطر يكتبه، بالرغم من المصائر التي تغيرت بعد حفنة السنوات تلك، والتي مرت بالتحولات العاصفة، فأراد أن يكتب قصته الواقعية معها، وتمنى أن يجد السطر المناسب للبداية التي يبوح من خلالها بآلامه.. فغالبا ما تكون الذكريات عصية على الكتابة، ويتحول الشروع بها كشروع كشف مؤلم أكثر من الألم برمته.

ـ ٢ ـ

هل هو قدر بان يلتقي ابنها البكر، ويكون طالبا مجدا عنده، دائم السؤال وحيويا وطموحه يجعله قريبا منه، ويتعلق كما يتعلق الطالب النجيب بأستاذه الأمين، أو الابن بابيه، والأب بابنه، فتآصرت بينهما صداقة سامية، وبقي يحدثه (كمؤلف حرّ الخيال) عن امرأة يتذكرها بأحلى الذكريات، و يتحدث عنها كما لو كانت مهاجرة.. بقي يسأل نفسه ان كانت الكتابة تعويضا عما خسره في الحياة، هل بقي عليه شرط أن لا يحيا قصص الحب إلا بخيال فالأيام كلها لم تعطه فرصة أن يحيا كما ينبغي على القصص أن تكون، وان تحيا.. يالها من متعبة هي الكتابة عندما تفرض ذاتها لتجعله يعيش حياته مضاعفة، ويشحذ ذهنه لأجل أن يكتب، وكم من تعاسة يشعرها أنه لم يعش سوى حياة مفترضة على الورق، فالحياة بذهنه مفترضة وليست كما جرت؛لم يتذوق سوى نعمة ما بقي يخلقه لنفسه، ومالم يتمكن نيله من الحياة فقد ناله سطورا على الورق..

ـ ٣ ـ

بطلة قصته باتت اليوم في الخامسة والأربعين، تحمل وجهها الصبوح، ذاته، وقوامها المشوق، ذاته، وكأنه لفارسة، قد بليت تحتها السروج من بعد غزو حسن لا يتكرر، أبدا، وكأن الشيب لم يغز مفرقها، وانفها الدقيق الجمال مازال بأنفة تليق بملكة قد بسطت سلطانها بخطوة راسخة، مهيبة.. بقيت منبسطة الأسارير، لم يذبل صدرها الشاهق بل بقي متعاليا، شامخا بخصب مغو، متحدّ، كما بقيت رقبتها ببشرة طرية، شهية، تشرق من شال اسود يضفي على البياض إشراقا، وبقيت سلسلة بسيطة من الفضة ناعسة على جيد صقيل يشعّ جاذبية، فينعكس على وجهها ضوء شفيف يمتزج ببريق عينيها، فتأسر بهما اعتى الرجال شراسة، ربما لأنها لم تتزوج بعدما قتل زوجها في حرب الخليج الأولى، ولأنها حاولت أن لا تجعل من أي رجل في الدنيا قيما عليها، وعلى ولدها وبنتها التي ورثت عن أبيها ما جعل الأم أكثر جمالا وروعة..

عرفها يوم كانت طالبة مجدة يجمعها معه درس واحد، وما كان يهم بها جدا، فهي كانت المرأة الأولى التي لامس قلبه غرامها، وكانت له في صحبة توالت بالتواصل الحميم، فقد بقي جميع أصدقائه ينسلون تباعا من حياته كلما زادت تلك العلاقة البريئة وصالا، وبقيت القصص المغموزة عنهما في باحة الحرم الجامعي، الأكثر تشويقا، الأكثر غموضا وتعارضا، وبقيا الوحيدين اللذين يسمعان بعض القصص ويظنانها

لشخصين آخرين، وذات يوم تفاجاءا بكل الأحداث التي تناقلوها عنهما، الى درجة الصدمة، وهي حقالم تحدث قط، فآلمتهما القصص المخترعة، المصوبة إلى ظهريهما، وخاصة من اقرب الأصدقاء، والأحبة.. بقيا يقسمان بأنهما لم يتصافحا طوال سنوات صحبتهما، بقيت القصص المغرضة تقسم الواحد فتجعله اثنين، فبقيت وخامتها تتطاير متناثرة في الخضم الثقيل الذي طالما رفضه بعزم متشدد، مثلما يزيح الهلل[1] الملتصق على زوايا الحيطان العالية، بعد أن تأكد انه على يقين تام، انه لم يكن يوما حشرة وقعت في شراك العنكبوت، مثلما يلاقى المؤلف عادة المصير المحتوم نفسه، ولكن ينظر من الشباك عبر الزجاج النظيف، ويبحر صوبها... بعد أن صار متأكدا أنها لن تراه، عبر ذلك البعد.. من خلل الزجاج المظلل، الذي ربما يسمح بحرية رؤيتها، دون أن تراه، و ظل يعاني عناء خجله الذي خسره الكثير، اذ بقي يقول لابنها: الكاتب هو ان يكتب ما جرى وليس أن يخلق ويتمرد عليه خلقه، الكاتب ان يكتب الحياة كما هي، وان لا يستسلم للذة النص أبدا.

عيناه العائمتان بالأسى المتراكم، أصبحتا مشدودتين إلى ذلك الأفق الجميل، وتركتا ما كان منشغلا به... اناء التهام ذلك الحيوي الأطراف، الرمادي اللون، الذي عالج ما اختطفه من شبكته العريضة الامتداد، ببراعة قل مثيلها.. بقيت الذكرى تنظر صوب نافذته بعينين مشعتين وكأنهما عينا قطة ضلت الطريق تحت ضوء ساطع، عيناه تتابعان المبادلة

[1] نسج العنكبوت.

التي انتصر فيها المتعدد الأطراف، وراح يحجل إلى غايته، بلا توقف، يتهالك كلما اخذ من الزمن بغيته في الندم على خسران قد حدّ من الانطلاق نحو الأماني.. كانت في وقفتها الكسيرة، تنتظر كالملهوف الذي تتوارد إلى ذهنه الذكريات اللذيذة، متلظية، ساهمةً، ومحلقةً في عولم متداخلة، وجهه المستند على ابتسامة، مقموعة بالتردد، ممتزجة بالقلق كأنها مثله تماما.

-٤-

لم يرض أن تكون بطلة قصته كبئر مهملة، وبقي على يقين بأنها تفيض له ماء كلما جدب خياله، على الرغم من غياب أي تعبير لفرح، أو لحزن، تركها تعيش كبطلة وحيدة فاغرة ألفم تمسك حافة حقيبتها اليدوية المعلقة إلى كتفها الأيمن، المتهدل من الثقل، باقية في وظيفتها قانعة براتبها المحدود، وأيضا كان يساعدها في ذلك الراتب التقاعدي الذي تركه لها زوجها لإعالة ولديها، ولم يتركها تعاني الفاقة والحرمان (كمؤلف حرّ الخيال) بل مكنها من بناء بيت حوى على غرفتين، وصالة، وحديقة صغيرة لا تزيد على المترين، وبقيت مع ذكريات الزوج تبحر في دنياها متحدية بكفاح منقطع النظير، وبقيت ترفض الخاطبين بدون ندم يوما بعد يوم، وعاما بعد عام تنتظر ان يتخرجا ويستقرا، ولم تك تطمح ان يعينها على مشقة هذه الدينا، لأنها بقيت متمسكة بوظيفتها التي لم تفرط فيها يوما، وبرغم كل التحديات بقيت كل يوم تدخل غرفة الأرشيف في الساعة الثامنة صباحا لتخرج بعد الساعة الثانية بعد الظهر، وتكون في غرفتها قد تآلفت مع أضابير الموظفين، وباتت تعرف عن كل واحد منهم كل ما يتعلق بوظيفته، وكانت الغرفة عبارة عن قاعة كبيرة فيها أكثر من ستين حاملة رفوف كل واحدة بثلاثة، وكل رف بعشرة أضابير، وقد أعطت كل إضبارة رقما، ودونته في سجل بقي تحت يدها منظماً على الحروف الأبجدية، يسهل الاستدلال على الاسم والمكان لكل

إضبارة، عملها أحبته على الرغم من الوحدة القاسية لكنها كانت قد بددتها في القراءة، فقد تعودت ان تمر في نهاية كل أسبوع على المكتبة المركزية وتستعير منها كتابا تختاره لها صديقتها أمينة المكتبة، وتثق بما تختار، وصارت بمرور الوقت تعرف هي ماذا تختار لنفسها من الكتب. لقد تشابهت الأيام عليها ما بين الرتابة المثمرة التي جعلتها تفكر ذات يوم أن تكتب أشياء عن نفسها، وفعلا أنجزت من ذلك الكثير من الصفحات، وبقيت لا تفكر في اطلاع احد عليها سوى صديقتها أمينة المكتبة، وجعل منها متمكنة من اسرار مدينة بالكامل، وصارت المدينة كلها تحت يديها كأضابير، تحوي السطور الحقيقية لتلك المدينة بعد كل تلك التحولات، صارت تكتب قصص الناس، وحكي حكايتها دون أية ريبة، كتبت حقائق عصية على التغير، فهي تعرف ان الكاره لا يري مثلما يروي المحب.. باتت بكل قناعة تدرك بان أرشيفها يحوي إسرار المدينة، (كذلك سيرة كل شخص، قبل التزوير والتنميق) يحوي عالمها المدون الموثق الذي لا تغيره الإحداث المتغيرة، عالماً متكاملا شيد في أضابير، وباتت المعلومة فوق المعلومة تشكل هيكلا عالياً من بناية خرسانية ليس من السهل اختراقها، وتزوير حقائقها، وأنها لا يمكن أن تعيش قصة حبها وفق ما حلمت بها أيام صباها، فهي لم تتزوج ثانية لأنها تعرف النية التي تفسد عليها قصة حبها الجديدة فرفضت بكل عناد أي خاطب او متودد، شاكة أنه من يريد التقرب إليها ليس لذاتها وإنما لوظيفتها العالية الحساسية، وان أي زوج يأتي سوف يأتي لمصلحة أبنائها، وان أبناءها فوق كل اعتبار.. صارت تدرك عمرها الهارب إلى حافات اليأس قد أوقفته على أمل أبنائها، ولن تهدر سنيها بين تربيتهم، والمكابرة على حاجتها إلى رجل يروي لها

عروقها كأي أنثى..

-٥-

قبل أكثر من عشرين سنة اختفت بطلته عن نظره بعد أن تزوجت، وأنجبت، وترملت ومن ثم لم تكن قد سافرت يوما عن مدينتها أو ابتعدت بولديها، كما كان يظن، ولم تكن تصله أخبارها، إذ بقيت في ذهنه كبطلة حاضرة تطارد خياله، في دائرة منسية، تقرأ يوميا معظم ساعات الدوام، وقد نظمت غرفتها بأحسن تنظيم، وأزاحت كما كثيفا من غبار تراكم فوق أضابير موظفين كبار..

-٦-

كان إحساسه بذلك اليوم، وهو يكتب عنها؛ انه سيكون فعلاً يوماً متميزاً..

ارتشف الجرعات الدافئة من قدح صغير بقي معلقا بين أصابعه، ثم ودعه على منضدة قريبة كانت قرب كرسيه. وحرك بيده الأخرى مؤشر محطات الراديو إلى أقصاه دون أن ينظر إلى لوحته، أو يرفع عينه عن المرآة، بحثاً عن موسيقى تناسب الأحلام الموزعة في انتظام سقيم، بعد أن ابتعدت نظراته كليا عن فظاظة الالتهام، وودع ذلك الكائن في عزلته القصية، مستنفداً ما رزقه الله.. (كمؤلف حرّ الخيال).. التقطت أذناه،

بلهفة، الموسيقى التي تروقه مع تلك الغيوم المتقاطرة في السماء، وبدت كالمكتوبة على فضاء المساحة.. غيمة بعد أخرى، تزمجر بوميض يسبق الصوت. كانت الصور تتشكل وتتداخل لتغير لوحة الجمال التي أمامه.. بعد أن أعطته المرآة معاني راقية، وأخرى غير التي تخص الجمال، تحركت في داخله، وراحت تفيض وتأتلق،؛ إذ يتهالك المعنى كلما اخذ من الزمن بغيته في الندم على خسران قد حدّ من الانطلاق نحو الأماني.. بقي ينظر، وحسب.. أناء الارتشاف من قدح صغير بين أصابعه، ويضرب بخاره في انفه. أراد أن يواصل كتابة ما بدأه، أن يتفوق على بطلة قصته، لكنه بات مقتنعا بأنه لن يجاريها أبدا، من بعد أن أعطاها في السابق كل ما يفتقد إليه الآن، فقد اختفت الأحداث من ذهنه، وخذلته الذاكرة، وقبل بها ان تكون كخط الأفق ليس فيها الأعمق، اختفت عنه تفاصيل كثيرة من الممكن ان تجعل حكايته جميلة، ولو كانت فيها القناعة طافية على سطح العقل؛ ليست مغيبة فيه... ماذا سيكتب؟ وكيف سيكسو هذه الشخصية الحية الواقعية لحما ودما كما هي في الواقع..

-٧-

بعد أن تلظى انتظارا في المكان المحدود، لما ستفعله تلك المرأة بطلة قصته التي ناهزت الخامسة والأربعين، وكأنها متطوحة تتلاعب بشعرها موجات هواء الشتاء المنعشة. تمنى ساعتها أن يمتلك منظاراً يختزل الخمسة والعشرين متراً- التي تبعدها عنه، لأجل أن يروي فضوله، فيراها كم هي صافية الوجه، برغم كل ذلك البعد، وكأنها تقاسمه ظلمة وحدة مريرة.. فستانها المخملي الأنيق جعلها جزءا حيويا لما يراه أمامه عبر النافذة عسى ان تكون تلك التي تملأ ذهنه منذ طفولته.. الهلال لا يحجب الرؤية، ولكن الخيال، أحيانا من عدم الجدوى، يتثبت كحقائق شاخصة، مكتسية اللحم، والدم.. تجعله مسترجعا آخر ما انفجر بين قدميه، وطوح به عاليا، متصورا ما حدث، ويتمنى بعمق، وبعد فوات الأوان لولم يكن مفسدا لحقول الألغام، ولم يكن الذي حدث له.. عيناه مصوبتان نحو النافذة، ويتابع الاتهام الشره لذلك الحيوي الأطراف، الرمادي اللون، الذي عالج ما اختطفه من شبكته العريضة الامتداد، ببراعة قل مثيلها..

كان الوقت لزجاً إلى حدّ السقم، والمدى بقي مزدحما إلى حدّ التكدس، ولأنه موقن بعشقه للموسيقى كالمتعبد،لم يأخذ لها من حياته إلا كلها، غرامه الذي لم يتبدل، (كمؤلف حرّ الخيال)، فافلت خياله الجامح وراء بحار وشطآن، عابرا وجعا كان من المفترض أن يكون وجعا

مفترضا.. تبين له ان هذا الوجع حقيقي، ولا يمكن تجاهله، أن لا يترك كل تلك الخيالات التي تستنزفه، ولكنها السلوى الوحيدة التي يستسلم لها، تعبث به، وتأخذه حيث تريد، وليس إلى ما يريد. تندلع الذكريات متكاثفة تطوف محلقة بدوائر موسيقية، تبطش بذهنه، تسيطر عليه... تبدو حالة من التقاطع المتداخل مع ومضات تبرق في عوالم وحدته المتكررة بسقم مقيت. يترك كل الأشياء المنطقية جانبا، كأنه يقرأ في أوراق تلك الملكة المضيئة وهي تعبث بمصير ما يكتب.

-٨-

على زجاج نظارتيه تقف حشرة ما بينه وبينها.. تصير بحجمها، وتحجب عنه الرؤية.

الأنغام المتوالية هي الأخرى تحكي قصتها، وتتراقص الأحرف تحت وابل من المعنى يشدهُ إلى معان متوالدة من بعضها..

-٩-

يودّ أن يقابلها على ارض الواقع، لأجل أن تفتت عنده القناعات، وتتكسر الدلاء، بدت له فكرة غير منطقية، كيف كان يحيا بين تلك السنوات الطوال، حاملا قصة حب من طرف واحد، متجاوزا الخمسين، مستقبلا نثيث مطر لزج على وجهه، مواجها لنفسه، متحديا لحروف قصته ومقارنا بعقل ما فاته من الواقع لا يمكن أن يلحق به على الورق، مضي يكتب صراعه الكاشف متحققا بنفسه من صحة ما يرى وما يسمع، ومقارنا بين ما يحدث متسائلا كيف يمكن أن يكون الكاتب ناجحا على الورق فاشلا مع الحياة، وكيف يمكن أن يتحمل خسارة ما ينبغي عليه أن يحصل عليه!..

-١٠-

لم يلتق بها منذ ذلك الماضي البعيد ولكنهما بقيا يكتبان هي تكتب كبطلة لقصته وهو يقرأ سطورها بعشق، باحثا عما آل إليه العصر في مدينته، كأنها تقرأ له أيضا ما آل إليه مصير القلب..

شاي حار

قلقت ما فيه الكفاية، وقلت محاولاً أزاحة هذا القلق السقيم :- إنني مفلس في هذه القافلة وحظي فيها أمين، اذ لا املك شروى نقير، ولم أكن في يوم ما طبالا قد أزعجت أحدا، بطبلي، ومزماري، أو رفيقاً بلشفيا اسهمتُ بوشاتي، وتقريري في اعتقال أحد.. أو ما اشبه، المهم ليس القلق كان باديا على ملامحي، فحسب. وإنما تبين جلياً من خلال الخطاب الإعلامي الواضح الارتباك، قلت مع نفسي مادمت أحدثك يا نفس فأنت حرة مطمئنة إذن. رغبت بقدح من الشاي .. في هذا الحر المقيت، ولكن الكهرباء الوطنية، من المحتمل أن تتأخر، ودونها لا أستطيع أن اعمل على (الهيتر) الصغير الموجود في الغرفة لبعض الرغبات البرجوازية المفاجئة (القهوة، والشاي بالحليب) وما عليّ إلا أن انزل إلى المطبخ، واعده بنفسي، مادامت شقيقتاي قد استغرقتا في نوم القيلولة، فالكهرباء لعنة قد جعلت منا نعيش منقسمين في حياتين مختلفتين عن بعضهما، بوجود الكهرباء الوطنية، واحدة، و الأخرى بوجود كهرباء المحلة (الديزل).. ذلك أمر لن يكون صعب الفهم حتى يحتاج إلى إيضاح في القصد. فالعراق (عراقنا) يا نور العين، وصرنا نحفظ الكلائش الإعلامية من كثرة عرضها في الشاشة اللعينة، أو عبر إذاعتها من كل البرامج العاملة..

نزلتُ الدرج متهادياً ببطء عجوز تجاوز السبعين، برغم أني قد وصلت مطلع الثانية و الأربعين..بحرمان مستمر. سمعت أمي تطلب من شقيقي أن يقدم لها إيضاحاً.. كونه تأخر ليلة أمس في وصوله إلى البيت.. إلا أن الكلام انقطع، وتحول همساً، و إيماءات.. لأنها لا تريدني أن اعرف الأمر الذي يشغلها، وبالتالي من الممكن أن يكون تدخلي سلبيا في أمر قد رتبته وفق ما أرادت هي، و انهم لا يأتمنوني على سرّ خشية تضمينه عبر القصص التي اكتبها.. وحقيقة الأمر اني غير قادر على التحمل، انني اكتب، وانصرف واغلب الأحيان أنسى تلك الكتابة حال إنجازها على الورق، أراها تسير وحدها، و كأنها تكتسي لحما، وتسير إلى النسيان، وأكون قلقا جدا في حال عدم كتابة تلك الأشياء، فالكتابة تستهويني منذ الطفولة، كأني أعيش بها تعويضا عما حرمت منه، أود هنا اسرق وقتا كي أكتب عن تفصيل حدث لي وسبب في أن أكون كاتباً، والحقيقة فيما بيني وبين نفسي اطمح أن أكون كاتباً حقيقياً يشار إليه بالبنان، كشاهد لعصره.. تناولت القدح الفارغ، لأملاه بالشاي، ورحت اخرج منديلي من جيبي لآخذ (قوري) الشاي من على الطباخ الذي يكون على الدوام في ساعة العصر محملا بالشاي الساخن.. أردت أن اذهب بالشاي دون أن ادري باني لم أضع فيه سكرا، ولكن والدتي كعادتها، نبهتني إلى ذلك... طلب منا مدرس مادة العربي وإن نكتب ان نختار أحد الموضوعين الاتيين، اكتب قصة سمعتها، أو قرأتها، والثاني: اذكر بيتين من الشعر و اشرحهما، في عشرين سطرا، كان الموضوع الأول يستهويني، والثاني استفزني وبقي يعيث بي، ان تكتب ملخصا لقصة سمعتها أو قرأتها، وعزمت على أن اكتب له قصة كقصة (بذلة الأسير) التي أخذتني وشدتني إلى عالم

العبقري (نجيب محفوظ).. ساعتها رحت اكتب قصة (ولد) في عمري آنذاك كان يعاني وطأة عراك والديه في ليلة مليئة بالأسى، وأمام (بنت) حلوة كانت فارسة أحلامه.. لم انتبه إلا إلى والدي يطلب من شقيقي (مهند) ليعيد عليه ما جرى لـ (طارق) بن الحافية.. ذهني منشغل في استرجاع تلك التفاصيل اللذيذة، ورحت انفخ على الشاي محاولا تبريده، دون أن أتوقف. وقد استوقفني الحديث الذي أحاول أن أتملص منه عندما يبديه والدي، الذي يقرني بلجوجيته المتعبة.. قال ان زوجته أودعت السجن وأختها، ورجل آخر.. انهم متهمون بقتل (طارق) الحمال.. وبقي مهند يتحدث واصفا الرجل الذي اخبرهم عنه ابنه الذي تجاوز الثانية عشرة، وانه شاهد (فلانة)، وأختها (فلانة)، ومعهما رجل غريب لا يعرفه.. رآهم يضربون بلا رافة اباه، الذي تفجر الدم من رأسه كنافورة ماء، و نفض جسده كما الدجاجة المذبوحة و مات...

تركت القصة التي استوقفتني، بكل ما فيها من تشويق، ومضيت اصعد الدرج إلى غرفتي. قلت سأبدأ الرواية من هذه الصورة التي مات فيها (طارق بن الحافية)، واعتقد ان اسمه يرن في الأذن، ويمكن أن يكون له شأن ما في سالف الأيام، لاني سأعطيه مالم يعطه أحد بطل روايته.. سأصف حالة مواطن عراقي تولد ١٩٤٨م.. عاش ومات ولم يعرف وجه أخيه كما تقول شقيقتي (وئام) عن شقيقها (شهاب) المفقود.. وتلك قصة أخرى، أو تفرع آخر يصب في نهاية الموضوع نفسه، فأي شخص عراقي الجنسية، ولو كان يعيش في الصين (لو ذكر في أي رواية)، لانطبقت عليه مواصفات الشخصية الروائية الفذة، و يكون متفوقا في بطولته الروائية

الفريدة، وصار أنموذجا دراسيا تقتدي به الجامعات، وتعتمده في مناهجها خير مثال للشخصية التي تحوي كل النقائض النفسية، والإبداعية المتمردة. فقد اصبح العراقي مبدعا في كل المجالات حتى في كيفية تحويل العدم الكيميائي إلى وجود وكتلة فيزياوية.. اذكر أحد الشعراء المغمورين.. عندما وصل إلى الأردن، فتح حسابا في أحد مصارف (عمان)، القريب من الساحة الهاشمية، وعمم رقم الحساب.. بواسطة الهاتف من أول يوم استقر فيه، وراح يتصل بالأصدقاء الذين في الشتات.. وراحت اسطوانة الاستغاثة تدور:- يا ناس يا عالم.. يا مخاليق.. انجدوا (المنجرة)،(أم النوى)،(العنافصة)، (أم الدجاج)، (التحرير).. طفحت عليهم الحمم، فاستروا أهاليكم، و ساندوهم:- (يا معودين.. خطية.. راح يموتون.. الحصار تره بس عليهم)... وراح المبلغ الصغير يلحق الكبير.. وتضخم بالعملة الخضراء، وعاد به إلى (بعقوبة) أول عمل قام به عند الوصول:- اشترى سيارة (مارسيدس)، وبيتا فارهاً.

تجار قضية، وبضاعتهم مربحة. بقيت أفكر من أين ابدأ القسم الأول من الحكاية، وكل الطرق تؤدي إلى روما، قلت، لأبدأ من ليلة أمس،من النقطة التي تفحصت فيها كمية المخزون من مادة النفط (الكيروسين).

وقبل أن اشغل الحاسبة، سأفتح الراديو على إذاعة (لندن) التي تتظاهر بأنها لا تقل عن أية إذاعة محايدة في إطلاق الأخبار، وبرغم حبي لها عرفتها، وحفظت أساليبها عن ظهر قلب. (وجهان فيها باطن متستر/ للأجنبي وظاهر متكشف[1]) شغلتُ الحاسبة بعد أن نسيت انني

[1] معروف الرصافي.

ا بحث عن إذاعة محددة، وتركت المذياع يطلق عليَّ إعلانا عن (شاي مبروك) من إذاعة الشباب.

أريد أن أتعلق بقشة وسط هذه اللجج العنيفة من القلق.. المناورة ستكون دامية، وعاصفة، كلما انقطعت الكهرباء، قلت مع نفسي هذا الانقطاع فقط على المحافظات، سأكتب عن ذلك بدقة، حالما ابدأ بالكتابة.. النص في رأسي يسرد بلا توقف، ولكنه لم يتنزل على الورق، النص يسير، لانه متراكم منذ زمن طويل، احسه استحق الآن.

بقيت أحاول استلال الخيط الأول من الرواية التي سأشرع في تدوينها، فكل ما حولي، يصلح لها، أريد أن احملها عصرها، أتمنى لها تكون في الحاسبات، و الفيزياء، والروحانيات، و الأساطير، وبقية العلوم، أريدها أن تكون شاملة عن كل ما هو عراقي.. لقد صارت اكبر مفردة في حياتي هذه الـ (العراقي).. البارحة عندما شاهدت فوز منتخبنا الوطني مع منتخب رأيتُ لافتة يرفعها الجمهور(ارفع رأسك أنت عراقي).

خمس مقامات في السياسة والجوع (*)

• مقامة (١)

حدثوا ان ناحلا الملقب (هايشويه) الخارق الغباء، يسترسل بحلمه بارما شاربيه دون أن يهش الذباب المتكالب على وجهه... ذات مساء مغبر، ومشبع بالدبق والرطوبة. إذ أخذته نشوته وحلقت في خيال لا يمت إلى واقع جوعه، وجوع حمارته المطيعة، فقال لها بعنجهية:

- سأجعل لك جناحين تطيرين بهما فوق الغيوم العالية!.

هزت الحمارة ذيلها بلا مبالاة ثم اخذت تحك جلدها بشجرة سبق لصاحبها أن أوقد نارا تحتها، فتساقطت أوراقها و بقيت تحدث صريرا كلما حركتها و بدت كما لولم تسمع ما يقوله مغتلما بالزهو...

- سنطير فوق مخازن الحبوب وندخلها من كواها العالية؟!.

بقي الرجل مسترسلا والحمارة أحوج ان ينزع عنها الخرج المليء بالريش الذي سبب لظهرها حكة مؤلمة... ظننتها قرادة مسينة قد

(*) نشرت في جريدة الصباح البغدادية.

لصقت تحت الحمل و بقيت تدس خرطومها الطويل الحاد كابرة موخزة إلى تحت الجلد بحثا عن شريان يندفع به الدم النقي...

ذلك كل ما حدثوا به عن الرجل، و حمارته. أما عن أولاده الأربعة و حرمه المصون، فاننا في خبر سنفرد عنهم فصلا آخر.

• مقامة (٢)

انتصرت علينا الحرب، ياصاحبي الذي أعرف؛ وما في العمر متسع للفرح، فلا اصدقاء من جيلنا اوصوا بالحفاظ على ما تبقى فينا، من مثل. لا ساسة خلصا... لان الرصاص نفد، ونفذ فينا، الألم المض، الانتظار المقيت.. فما في العالم من أسلحة الا واثبتت اجسادنا بانها تتحملها حدّ الموت، وما في العالم من خطابات الا واثبت اسماعنا بانها تتحملها الى حدّ القرف، يدفعوننا الى غاية في نفس السائس المختل بكراهية من يغتال اخاها.. وصارت الجثث بيننا وفوقنا، وكأن السماء امطرت شظايا جثث طازجة تهب نفسها للحرب التي يعرفون اننا وقودها الدائم، لم نكتشف مبكرين ذلك، فما في العالم من دموع الا وذرفناها بافتقادِ احبابنا الغافلين في بيوتهم النيئة.. لكن الحرب لم تمت عندما متنا، ولم تنته بعدما انتهينا.. انتهت الحرب وخلفت ابناءها منا؛ وحوشاً لم يشبعوا من اشراف الابوة.. انتهت الحرب، وخلفت اساطيرها العمياء لتذبح الخلية قرينتها الاخرى في الجسد الواحد.. حيث الشوارع النظيفة

لم نشاهدها يوما واحدا نظيفة، ولا معنى ان نعرف ذلك؛ فقائد الحرب، ممثل الرب.. كان يشرف على الموت بنفسه، وكان الموت يتحرك بامرته فيفرش اجنحته الرؤومة فوقنا؛ انتصرت علينا الحرب وخلفتنا تهاليل موت متواصل بالموت فلا فرح إكتمل باجازة او هروب؛ تركنا الفرح عاطلا، وبات الامل باطلا.. اذ تركنا الموت ساريا فينا الى اشعار آخر، لا يبهرنا بالموت سوى الموت نفسه، ولا ينقذنا من الموت الا شبح الموت نفسه. انتهت الحرب و نجن الميتون، المتعففون به؛ ننشدكم خلاصنا من الموت الذي لا مناص منه الا به، فلا حول ولا قوة الا بالموت العظيم: انتهت الحرب وما انتهينا من الانتصارات المتعاقبة بالسن الساسة فوحدهم من يحول الهزيمة الى نصر من هشيم، والهشيم الى رماد، والرماد الى تماثيل منتصبة بلا روح، سوف تدفع بها الريح الى التفتت، ولكنها الآن؛ شامخة بنصرها الشفوي؛ انتصرت علينا الحرب القائمة بين الشرق والغرب وخلفت مواطنا مدحورا: بين النار ودخانها، بين العدو والصديق؛ برغم ان تموت برصاصة غدر، او بفريق موت ليعيدوك الى الموت بحجة انك لست ميتا؛ برغم المسدسات الرعناء، برغم كابوس (الدريل)، وبرغم شحة الماء والكهرباء، والإنسانية.. فما لدي سوى ان اقول يا صاحبي الذي اعرف: الاسوأ ما في ايامنا هذه هي عندي اجمل من عيد في عهد (فلان).. وان انتصرت علينا الحرب؛ لانها بداية مفترضة قد ننتهي بها إلى آمالنا.

• مقامة (٣)

عن ابي فلان الفلاني سمعته يحدث عاطلين عن العمل في مقهى المدينة الخائبة، انه قال: (تعجبت من جوابه المتشابه، قلت لصاحبي... ماذا يكون هذا السوق بحيث يحوى كل شيء... كلما احتاج اليه سألقاه في سوق الجمعة، فحددنا موعداً في اليوم التالي، وكان جمعة. و بعد أن وصلنا إلى السوق تلفتّ فلم أجد أثراً لصاحبي في المكان المقصود... بحثت عنه في كل مكان قرب السوق، فلم ألقه... فكان عليَّ أن ادخل السوق وحدي... في البدء لم أتعجب عندما رأيت ساعة جدارية تشبه التي أهداني إياها والدي في عيد زواجي الأول، ولما تقدمت اكثر إلى داخل السوق بين الناس، كان من النادر جداً أن لا ألامس أحداً أو اصطدم به... وقفت أمام جهاز تلفزيون، وكنت فيما مضى قد وضعت عليه صورة لا صقة أعجبتني دلالتها. حدقت فيها، وقلت من الجائز أن تكون مصادفة... العلامة ذاتها، والزاوية ذاتها. ولدى بائع آخر وجدت ثلاجة بحجم ثلاجتي عروة بابها مكسورة أيضاً... تلك الحادثة حصلت عندما انتقلت إلى بيت آخر قبل أكثر من ثلاث سنوات. تقدمت أكثر... رأيت بائعا آخر يعرض مجموعة من صحون الخزف الصيني وكان بينها صحن يحمل صورة ابني الصغير، أتذكر أني أزحته جانباً صباح هذا اليوم، و تناولت من قربه علبة دخان سبق أن سجلت عليها رقم هاتف أحد

اصدقائي الذين كانوا معي في الحرب، فزعت عندما رأيت العلبة ذاتها مع مجموعة علب أخرى تحت يد بائع آخر. فكرت أن أعود سريعا إلى البيت، واتفقد أغراضي التي رأيت أشباهها في السوق. ضاقت بي الخطوة بعد أن تعثرت كثيراً بالناس المزدحمين وصار من الصعب عليَّ أن اختار الخطوة التي أريد. تلكأت بعدما تقتمت في رأسي الأفكار السوداوية، ولم أعرف من اين دخلت وكيف سأخرج؟ صارت الممرات أمامي بشعاب متفرقة و مسالك متشابهة كأني لم ألحظها من قبل. كان الناس من حولي تشتري كل شيء، مهما دنت قيمته، و ما لا يمكنني تصديقه، رأيت أحدهم يبيع (سيفون) التواليت وشككت بأنه لبيتي... أخذني الدوار عندما اندفعت بين مجموعة من البائعين تنادي بصوت واحد على بضاعة واحدة تكالبت عليها الناس، صار الزحام حولهم أكثر من أي مكان، ولم أتبين بوضوح كومة الأيدي المكومة بعضها فوق البعض، وعرفت أيضاً عندما أشترى أحد ما واحدة كانت بوشم أخضر بانٌ جلياً على ساعدها فعرفتها لصاحبي الذي صاحبني إلى السوق هذا. عرفتها لصديقي الذي ثارت عليه إطلاقه مسدس وشظفت بنانه... كان قلبي يضرب بعنف عندما انتزعه أحد من الذين حولي، ونادى على بيعه فوراً)، واضاف اننا لن نصدقه حتى تدور علينا..

• مقامة (٤)

لا ادري كيف أصبحت سائلا لزجا، بدا جسدي يتضاءل شيئا متحولا إلى زلال بيض او ما يشبه بلون لؤلؤي غميم. عظامي انصهرت، ولحمي ذاب و بقيت اتركز شيئا دبقاً هلاميا، متكونا من فركتوز، كلكوز، بروتينيات، و بلازما منوية و تلك نائمة...

اخذت أسيل من على السرير، أريد أن أماسك نفسي- إلا أن حافة السرير منحدرة، فلم استطع أن أعلق بشيء. حاولت الصراخ، لم يكن صراخي سوى فقاعات صغيرة وبصعوبة شقت كثافتي التي أنظرها جلية في التماعي، وتلك نائمة تغرق في حلم دافئ؛ بقي البرد يضربني، وأنا أسيل مندفعا بأتجاه ما. قوة تجتذب كميتي كلها إلى ما ليس ادري. لو استيقظت (تلك) لسبتني، قبل أن ترمقني بنظرة شزرة من نظراتها التي تكشف عن اشمئزازها الدائم .(دون أن ازرع في أحشائها شيئا).

... وتلك نائمة، فسرت باتجاهها ودخلت محشورا باتجاه العمق المظلم الدافئ، ومرة سرت باتجاه جذر الشجرة و دخلت محشورا باتجاه العمق المظلم الدافئ، وأخرى باتجاه الماء، مختلطا معه، منتشرا فيه باتجاه العمق المظلم الدافئء، اذ سرت باتجاه أبي مختطا بترابه- باتجاه العمق المظلم الدافئ.

• مقامة (٥)

وقفتُ أتأمل صرحها، وأنا اشق نفسي في احتبال النشوق، وكان عندي ليل بهيم يحضره إخوة تعساء، وأهل لا يقيسون ظهر المجن إلا بما يرونه. وهم لم يروا إلا ظهر البعير، ولم يقولوا قولا ابعد من سنامه. بقيت أترقب السهل الأصهب الشذيّ بعطره.. ثمة محاور أخرى عليَّ أن انظم سردها.. مثل القدّ واللثم، والأنفاس الأخرى.. كانت الساعة عندي تساوي جدلا بما يساويه الليل من انجاز، وكانت ريح باردة، وكانت أيضا ذئبة جائعة تفتل الخيام باحثة عما يجعلها تواصل الليل بالنهار، ارتجل الخطو العابث، الحمى تتواصل على من معي، وما عدتُ من لهاجي أبدا حيث اختليت مجبرا على ان أكور نفسي باتجاه جنين يعدني بالأمل. عصفت العاصفة وقلبت كل المكان كأنها شرطة تبحث عما توده.. كنت على يقين باني لست هدفا لها، ولكني كنت أقوم واقعد واحلم وأتنفس عبر خيط من ذكرى يأخذني إلى ذكريات تتواصل عندي بالأشياء الأخرى.. الصمت كان قاتلا أبديا لو يدخل عليّ لأنه كان عندي أمل بأنني الملتهم ومعي الضعفاء اللذين يقرون علي شجاعتي التي لا امتهنها.. بقيت ارقب الصدى القادم من العويل، وكان الليل قدما في البرد الذي أثلج قدمي وأيبسهما؛ اذ بقي الصباح يشق رحلته البطيئة، ولم يكن أفق هناك يدل علىّ أمل قريب... حيث كان الصمت موحلا بتراخيه، والوجد مذبلا كل مآقيه.. قالت تهمهم بنومها، والحمى واصل عليها

هذيانها، الأقداح التي ظننتها أقداحا اهتزت في آنية المساء الخائبة..لم تحو حتى فتات وجبة منتهية... الليل يتواصل، وأنا أتحسس ما حولي، واسأل نفسي ماذا لو هجمت عليها الغياب وأنا في الظلمة الحالكة.. أناور حاجز الظلام بما لا ادري.. كم أتعبني هذا الضياع المتناهي في السر الذي لا يعادله سرّ آخر، فلا بندقية من حربي السابقة ولا عندي إي افتراض أقاوم به... هل استسلم؟ لا شرق عندي ولا غرب أتأمل به بعدي عبر المكان، والزمان معلق، ومهدم بالرعب الظلام ينشر فوضى من الحس المتواصل بثقل الهواء؛ البرد يمرّ عاتيا في الحواس ويغرقها، بقيت انظر لوحة العماء الكثيفة، وانتظر موتي؛ بقيت وحيدا انتظر حتفي.. بقيت اكتب ضعفي كانسان وحيد..

السبت ، ٣٣ تشرين الثاني ٢٠٠٨

خسارة متأزمة بالفقدان

(النص وحده هو الذي يحدد جنسه الادبي وان كل محاولة للحد من حرية المبدع، حبسه في قوالب جاهزة. وتقسيم الاجناس الادبية الى نبيلة سامية، واخرى دنيا يبقى في نهاية الأمر قتلا للابداع) (*)

احمد الخديري.

(الشعر نتاج معقد يحتاج الى العمل المثابر، والتجديد المستمر في الشكل والمضمون)(**)

مايكوفسكي

— ١ —

حين عدت/ وحيدا/لم اكن معطوبا / كجندي حرب/ غير أني تنازلت عما بدأته، وحسب متنصلا/عما تحججت به / تاركا أحزاني مدفونة على الحدود/ بصدور أقراني الناهضين / القائمين،بحمل نفسي على أن أكون أكثر حيوية/ لا أشكو من عطل في الروح، ولا من صديق آسره/ لأجل أن يبوح/ امرأتي النقية، حين عدت لها سعيدا / من جمهرة النفي والاغتراب / سجادتي النظيفة، حين عدت لها نقيا من احتدام الشمس، والغبار / ملعقة الطعام/ ألافرشة طيوري، كلبي، وموسيقاي/ تكدست في الحقيبة/

(*)ناقد مغربي .

(**)شاعر روسي.

فما عادت المرأة سجادة/ ولا ملعقة الطعام افرشه / حتى الطيور، والكلب / حين عدت/ وجدتهم جبهة ضدي، وخط النار/ يلتهم حدود نفسي/ حين عدت/لم اكن معطوبا/ لكني الآن؛ عجبا تعطبت.(*)

— ٢ —

- تعالي

نختصر الحرب، قلت لها:

.. نتبادل الأماني. عندك كل ما احتاج اليه، ولك عندي كل ما تحتاجين اليه، بل عندي اكثر مما عندك من حاجة لي وعندك اكثر مما عندي من حاجة لك.

- تعالي

نختصر زحام هذا العالم (الآلام، المحن، والضغوطات).

- تعالي

عند حجارتها

باب ينتظر أفول من لا يعودون

(*) نشر هذا المقطع في الحركة الشعرية شتاء١٩٩٩.

باب ينتظر فرصة آمال غائبة، وعيونا، وعيوناً، وعيونا يتكسر تحت مسقطها ألق كريستالي، و آخر من جمرة، وأخرى من سؤال ...

وعيونا، عيونا، عيونا عند حجارتها تقول لجارتها :

- (طالت الغيبة)!

للأنثى التي افتقد أصابع من حطب يشعلها القلب، وعينان من ماء يشربهما العقل، وثمة انزلاق في ممر ضيق أولج فيه روحي كلما ضيقتني الريح، وما قاومت من تهرؤ الزمن الآسن. للأنثى التي افتقد سيل حنان يجرف بقاياهن ..

- أشتاق كلما فرغ الصدر من الماء العكر

سيل يتلونني كلما حجمتني أزمة جديدة/ سيل أشبه ببياض ليلك الذي أشعل سوادي، وجاوز بالقبلات.. رمادي/ سيل ولج للأبيض تنهدي/ رضابك مزيج دمي، فضاؤه عيني .

- أتتنهدين

مأسورة بالأسود بعدي، أم كلماتك الشمس الهامسة فجرا/ ارحل غبشاً/ أسيل منشرحا ما بين الحلمتين/ ارتشف مدا من العبير / يضوّعه مفرقك، لولا ارتعاشي/ لأشعل بياض ليلك سوادي / سوى سنة خجلة / تعالي أقول لها /أشتاق إليك اكثر كلما يغمرني أبيضك، فيزيح

انهدادي/ ارتحل زمكانا/ انصب بين جبلي أنوثتك عسلا، قبل نضوّ الثوب، خجلا بعد الاحتدام / ارتعاشك خجلا .. فمن يجمع ما يكون بيننا ؟! .. بياض حلّ عليّ كالوجع الصارخ في خلايا فحولتي/ ملأ نومي يقظة بياض نسغ بركاني حدّ العيون، توزعا كاللمسات /على ا نحناءات رغبتك أرتفع برج احتراقي/ بياض متقوس/ فاتن /متعرج/ تكور/ جنني بك/ خطوطه الأنثوية امتدت نحوي، منك، وضيعتني ما بينك ومسامات رجولتي .. بياض اخترق ليل الأنفاس/ سود بياض الكلمات دفن نجمتين مشتعلتين أراهما تعرفانني باشتياقك إلي تختزلان سري/عقد تضوع بعد شاسعا/ من فضاءك/ اكثر همّا مني... لولا انتقاض وسطي خيلاء بأنوثتك/ ما كنت اعرف الأنثى التي افتقد.. سيلٌ .. سيلٌ .. سيلٌ .. جارفٌ وعات.

- تعالي

جرسان يقرعان بين كل لحظتين من ظل متوقد، وعصفور مهاجر، جرسان يدمدمان في الرأس من أنثى وطئتني، وتدليا أبيضين كذاكرتي .. أسودين كظنوني، والبلد !.

لها ، قلت في كل حرف من تنفسي وبصري.

- تعالي نختصر .

— ٣ —

قلت في صمت/ أليس ما عندي من حلقة، وعندها من حبل/ صدفة/ التقى ما فيّ، والعالم /أواه/ أبوح بقلمي إليك أيتها المنتهكة مسرتي .

- تعالي

أيتها الصديقة.. المفرطة في الحساسية، والودّ/ وما ذهب لعله الخراب نعلقه على نسياننا.. تعالي فلا المسرة قطعة من حبل/ مسرة/ مشنقة، ولا شباكنا فتحة عين/ نحتطب ما بقي لدينا.

" أواه " أغنيتنا/ ما زال القدح الكوني فارغا فلم ننتظر شراب الحكمة بعد إذ اختلت الموازين، وسقطت عن الآمان أقنعته.. السنا معلقين نتطوح في غفلة ظلمتنا بين ما قرأناه من مبادئ وقيم نادونا بها ، تحيط بنا هاجرة ضروس أواه/ قلناها في صمت ألم تسمع ؟ أما يكفي من دمار لأبادلك الدمار/ أرجوك .. لا تدمر مسرتي بحبال التعليق.. لا تغابيني وتظنني أقبلها للصعود../ قلت في صمت، إليك هامساً/ الدم والموقف يملأني إنسانية رفيعة .

- اني احبك/

"لم اكتشف سوى جملة، ومصيبتي أني الوحيد الذي لا يعرف غيرها، ولا أرى أبعد من أنفي (العالم بشع) كما لا أميز من الجلبة سوى الموسيقى أو كلمات الشعر. تعزلني عن سباق الجنون في الكسب السريع منهج للذة المباحة" .

- أحبك

وكل العالم لغز أن حاولت حله/" أنا أكره " .

— ٤ —

لن يتوقد زمني على مساحة من غم تعرفينه/ لن يكون أسى/ أيتها — البلد الذي تركني قطارا ينزلق إلى سماء مهاجرة، فأقمت عند أبي الذي ما عرفت أباه عينان مجوفتان/ ذاكرة مثخنة بجراح متوارية خلف أسرار/ تجرف السطور، وذهن/ يجرف الطيور، وأعشاشها/ كالفيضان، نسوة/ ملائكة تقرأ استقامتي/ أحجار رمسي تبدل لوحات المساحيق / هل أنا بليد حقا ؟ أسال أبي، ويسألني زمني عن أحوال المفردة بالصدر النافر عن مدن الرماد بأسئلة البضاعة الكاسدة / عنك .. متى أقيم/ يتوقد وقتي.. متى انحل/ ينحل زمني/ فراشة لجوج حول شمعة احتراقها/

دمعة حزينة تنزل انطفاءها / كم من الأسى ما يكون موقودا به قلبي/ قلبك!!

كم من الغم الذي تعرفينه لا يساوي أساك كلما افتقدتنني!/ أ أنا بليد؟/ عندما اقرأ نفسي سعيدا/ عندما اقرأ نفسي سنوات حزن خرافية امتدت سطحا مائلا، فانزلقت مصادر أمواج عيني محطما سطور روحي، كلها/ تذكرتك تتهربين مني كل مرة باتجاهات نفس هيجتها الاحتدامات سورا/ حول رقبتي/ السنوات اثر السنوات/ حزين/ تعيس / أيتها الخرافية كغراب يقف على كتفي ظلك.

— ٥ —

أخذتم مني ما أخذتم ما كان تحتي وفوقي، وحولي/ أخذتم الضوء، والنخيل/ أخذتم الهواء فهل تظنونني الأقوى، الأدهى؟ مهما تأخذون/ أنا أعطي برغم انفي، وأني تعلمت غياب الأوكسجين وأني برغم العثرات انطلق سريعا نحو هدف لا تعرفونه جائعا، عاريا، منتهكا، منهوكا ... لأني بحرماني مازلت أقاوم، وأقهر ما بقي من عزمكم عليّ.. مازلت أضع أرجلكم الخالية الوفاض/ يبتلعني الضجر، يكتفني الحرمان/ كل كلمة خرجت/ والأذن لا تسمع حفيف الشجر، والعين لا تقرأ إلا هدير النهر... أخذتم مني ما أخذتم، وتظنون أن بقي لدي أكثر مما عندكم .. ربما، فأنا أعرف كما لا تعرفون، فتظنون بيّ أبشع الظنون .

— ٦ —

أيتها الحرية هل اشتاق إليك اكثر، فما اكثر ما في من حنين عندما يفجّ اتساعك عقلي، وقلبي يلوم نفسي عليك– دونك الأسطر ثكلى/ المعاني حبلى، تندسّ صامته بين الكلمات، فما أصعب أن أغادرك/ الرأس مثلث، والقلم رأس متثلم دونك .

— ٧ —

صانعو الأسلحة حصيفون جدا دون سياط..يجلدوننا لنجر عرباتهم بأيد فولاذية يقفون في آخر مطاف من العالم ينظرون، وحسب يراقبون دقة تفاصيلنا نحن، نومئ لهم بإعجاب لما يتقنونه نودع في كل يوم التحاق / للمرة الأخيرة، ونزرع في كل يوم التحاقا بذرتنا الأخيرة / نرنو إلى فضاء مفتوح بالرهبة إلى أصدقاء حملناهم بأكياس القمامة إلى مدافن امتلأت باللامكان نكدس أحلامنا ووقتنا/علب الأفلام المرعبة لا تحتمل خوفنا / لا تحتمل وقوفنا/ كنا نركض حين نرنو إلى الجثة الشجاعة التي أوقفت خوفها على قوس النار، ونحسدها /... كنا نرنو/ الحقائق قدامنا تتلاقح، و المواقع بيننا تتلاقح ما بين موت آخر نمشي به، يمشي بنا/ تغشاه/ لا يغشانا/ نخاف اطلاقة مدفع لا تخاف منا/... كنا نرنو / نباعد الخطوة كلما انبطحنا قدم تخسر افضل من ثلاثة، وصغير موت

يفرق بيننا جثثا كبوق نفير غازات تغزونا نتفرق بالتقافز/ نحترق متلاشين كذرات الغبار نمسح الوجه في العام الواحد بإطلاقه .../ ربما نمسح الوجه بالدم دون أن ندري دون أن نعي لأننا كل يوم نقلب الأرض لنعرف لمن هذه القدم، أو ذاك الساعد/ نقلب بالخرائب أحذيتنا، ونبدلها بالجديدة مع الأكثر منا كرما، وشجاعة، ومحبة .. كنا نرنو/ نتابع عفاريت الوقاية ننزع أجسادنا، ونعلقها على شرفة الحمام المفتوح للفضاء/ نغسل ما علق بالروح، ونهمل ما علق بالجسد من أدران البارود/ نقلب وجوهنا في بعضها نحتكر خوفا دون ميزان، أو ملعقة/ نشرب الدم غير الآسن مع فئران اكثر شجاعة من جثثنا المحايدة، فلم نكن اكثر من أوهام ابعد صدقا من الحقائق. الجثث تركض خلف جثثنا دون رؤوس .. تركض خوفاً من خسارات أبلغ من الرأس .. تركض خلفي، وتتساقط كجذوع النخيل المتقطعة من اسفل ... /أواه / كم كنا نرنو، وتشاركنا جثثنا / نلهو، ونطلق بهسترية لا يقدر الشعر إ يجازها/ حماقات اللغة الدراجة.../ كنا ننام بهسترية، ونأكل بنوم، نتقابح مع أنفسنا/ نتداخل، فلم يقهرنا انقسامنا ../ وبقينا ...

— ٨ —

متشككون في آلية أي عمل، وفي سكون أية نعمة ...متفارون كذكور الحمام نذرع سلالنا- ما بين واحدة وأخرى/ تهدل حيواتنا بين قشة وأخرى/ نرقص كحبال الغسيل المقطوعة/ دون نسيان ان أول الخطوة في الهاوية متناسين لحقائق تجمعت في ملفات الذاكرة بأن الهزيمة درسٌ بترولي ... لكننا نعرف الحلم المتقدم/ المتوغل حالة نصلها، ولا نصلها/ نتغابن/ نتبارى كما تعلنها هيئة الإذاعة البريطانية .

— ٩ —

دعيني أحاول/ أن اذرع الغرفة الضيقة جيئة وذهابا، وأن أدخن ما بقي من سيجارة اشتهيتها .. لأؤلف لعينيك ديوانا فيه حلاوة الماء، واعدك بأني لن أسطر فيه ما تخزن بذاكرتي من أهوال الحروب التي خضتها ..دعيني أحاول/ أن أقرا كتابا في الحرية، وأنت تعدين لي قدح الشاي بالحنين، لا كتب لوطني ثوبا لن تسقط أزراره.../ دعيني أحاول/ دون ضجة أولادك، وشكواهم من الجوع .. لألحن معجماً فيه مفردات تعلمناها دون وهم ...دعيني أحاول/ تعريب ما ينقضي فيك، وما ينقصك في ناسيا، ومتناسيا ما للضرورة من أحكام .

— ١٠ —

كان الرجل وحيدا يتلظى بوحدته، وقلمه، وفراشه ينكمش على ندم ال إليه يتحسر على زمن زال كما الماء المتسرب على جسد يغتسل من خسارته، وهما يحلم بأرباح لم تؤل أليه يتشظى خيالا ويبحر صوب الأماد- أين يجد روحا تفيض على اخضراره العطش؟ كان كل مرة يتهيب من كل يوم يأتي عليه وينام فيه بلا نوم. يقتات في فراشه آلافا من الأحلام والأوهام.. كبطولات يصنعها الزمن الرخو آمالا ضاعت في وقت ميت. هو الوحيد بقطرات مرتحلة إلى أزمنة تضاءلت وأحلام أيبست خيالاته.

— ١١ —

احكي عن زمن قد انتهى... هاهي البداية التي أُحب هطلت بشبق أفكارا/ رؤيةٌ واضحة/ ميدانا، أو لجة مالحة.. فما من شيء ألذ وأطهر من هذه النشوة البلدية لست محتالا بهذه الصورة، ولا صعلوكا انتهك أواخر النهار بالإسطرلاب لكني متوج على الفراغ المنزوع القسمات، والإيضاحات ليس سرا أن أكون معلنا، وليس علنا أن أكون خفيا.. لأني من شسع الحرف الممدود/ كالطلقة التي استعادت الهدوء بعد اندلاعها فأنا مأسور بالطمأنينة.. ربما متوج بالخوف المتتابع يوم عرفت أني كنت عرقا

لشجرة باسقة عرافا – كنت اقرأ سورة الغلال للنسور، والتفاح، زمن الحكي .. أنا، بسالته:-

(أنا من أكون؟ أعرف نفسي لنفسي).

سعيد حقا أيتها المساء آت الواسعة بالهذيان سعيد من يعرف أن المساءات مفردة ضيقة (كم أنا أتتلذذ كلما حكيت صمتي عن هذه المزة، و ذاك العرق، عن هذه المرأة، أو تلك العباءة. أنا سعيد حقا أيتها النهارات الطاغية بالغفلة/ الرجفة/ الشهوة ... باندلاع الشعر في الجسد الذي لا يرتوي من الجسد/ زمنٌ أنا، وانتهيتُ إلى بداية اعرفها/ بداية حكاية تدور تحت رحاي/ تحت فانوس من اليأس/ سألت:

- كم من الملاءات أزحت، ولم أجد عروسا تمجدني ساعة الفضّة.

كم من المآسي صورت لي أنهما، ولم تنتظم باللحن الشجي الذي يعتليه الفاشلون

... يا ويلي يا زمن الحكي الذي أتى لن يودعني سجنا بين اسطر فارغة غبّها غزل عفوي / الأنسات اشترين مني لوحة حائطي، ولساني المعسول بالخرائط، وقميصي المليء بالثقوب التي أحدثتها الشظايا. كم تعبتُ كلما بعتُ ما بقي منك أيها البلد الشقي- أيتها المرأة الحاضرة

بالانهيارات المزمنة (كم من المآسي شربتني ثمالة واندلعت حرائق في أسرة باشوية/ أيتها/ أنت لا تخافين.. لكني..)لم أكن أعرف المعنى، لأني لم أحددها و لم أكن أعرف الذي يعرفها، ولا المعاني التي ما عرفتني بمعانيها قد عرفتني، والتي عرفت لها معنى عرفني معنى /أيتها الانتهاكات ابلغني بأني وصلت بك النشوة وبلغت بك البغي، و لم أكن أدري أنني ادري بما أدريه/ أيتها المسرات أوقفيني لزمن عائد عكس حصار الحرب، من رماد الكلمات . فأنالم أخض حربا مع العدو إلا وكانت نفسي تقاومني على نفسي ، ثمة حرب ثالثة أخرى تقع بين البينين!/ أنا لا ادري كيف كنت ادري باني لست أدري ولا دريت ما دريت أكثر من الذي دريته .. متحفظاً من عهر الشعر، أو من أغنيات القص بسمة نبوية أمنت لفظا سوياً أتقهقر في صوت خفيض أهمس : أثمة حرية ؟ مجوفة ندخلها من نقطة نأخذها من نأمة/ أيتها الحرية/ أيتها الأبدية أتعلين موتي ؟ بأتعاب خيلي، وإطفاء فانوس ظلمتي/ من أجلك قتلت المعنى فكانت حكاية نشدها (واوي) على ربابة محمومة. زمن حكي قادم من صمت حكايات تلكأت قبلك أيتها الفوضى.. أيتها الحرب الصامتة/ أيتها المرأة الحاضرة.. ما ابلغ السلاح بك ؟!

وما ابلغ الكلمات/ زمنُ الحكي هو زمن قصّهُ الرقيب.

— ١٢ —

لا تشعلوه قال القلب، هو المعنى بالمشيب، وفوضى اللهاث- أُحبك.. حتى ساعة التمني- لا تضغطوه قال الربُ- القلبُ مدمي بالخرافة، وانهمار المشقات- أريدك نهارا لمساء الكلمات. لا تعلقوه- قال النبيُّ- القلبُ لن يحترف التواري- لن يعترف بالغياب .

—١٣ —

مهلا، ...

فالبدايات ستكون اكثر بهاء من النهايات المكشوفة. فالحرف أن بدأ بهم، فانه نغمة أسى ستطل على فرح يشتعل ليوقد الأمنية بالغناء/ ان الضوء الذي لا زمني كان أولا من شباك تذاكر وأنا في صحوة من حلم لا ارتجي فهل إلى بقرار يصلني نحو هدي/ عند حزني أكون وحيدا يتقافز حولي الفراغ، و يضمني ضجيج صارخ من فوضى عدم لا محدودة/ لا أدري متى سأكتب إليك وأنا أتجاوز تجاوزات التجاوز معبرا عن انبهاري بكل ما في من دافع عفوي نحوك بنقاء كالدفء الذي تشعه عيناك المدهوشتان معلنا ارتباطي الوثيق بشجاعة الحرف الصادق، عن شفافية وجهك الذي جذبني نحو غياهب إحساس نبوي/ لا أدري أيتها البهية كيف سيتواصل إعجابي، وأنا أرتجف مهابة كلما عجز الكلم عن البوح — متمنيا أن يثمر الود بيننا ، وأن نقترب اكثر؟ مهلا/ أيتها المرأة الحرية

الدفء .. فالحنين يأكل مني بقية ما في رأسي من فراغ ويهول الغياب بهذا الفضاء الشاسع فأنا ما أدركت أني أكرهك كل هذا الكره الا أني أحببتك بكل ما في من حب/ أو صدت أعمدة الذكريات المتقاطعة بفراغ الرأس من العلم والحلم كي لا أبكيك أيتها الغالية/ وطنا كنت ولا صديقا أو ضلا أخبئ رأسي لحظة القيظ الساخنة التي تنزل علينا كلما تكاثرت خطايا المتناسلة.

— ١٤ —

ربما أني اختصر/ بغير لغة يدور أريجها/ لسعة، أو ومضة/ غدرت بنا الحرب/ فما غدرنا بوردتنا انلم نسقها/ تهويم / انفجار/ دمعة تسح من غدر اختصرنا صورتها/ و لم نفرشها للغبار... تلويحه الموت تلك ، عشقها مندلع/ يتلوني صدأ بلون الورق/ غبار من عندلة عذبة أساور بها خجلي محامقا نفسي على الانقلاب/ اغترفُ/ عجالةُ/ اغفو قربها اعلمها حروفنا الضائعة باختزال المسرات !

حسرتي - مسرةُ/ وسوسةُ إناث يضطجعن ليسمعن سلافة محروقة في ذهن محارب لن يعود/ وسوسة ضيعت مني احتراف الانتهاك /أنا القارئ النهمُ لفراغ السمة المباحة، أو لعاصفة الندم الشديد. اعترف،لم ارصد في يومي دقيقة هربت/ تعاليت على أوراق بسطور يسقطها خريف

المديح/ أتنفس كلما وفقت قربها/ ناداني شفرها، وانسلال شعرها المسبل الأسود إلى اتساع الخوف/ غيمةٌ/ كلما قرأتها/ أحسست بانكماشي، بلادة تضايقني دون نفاذ/ لم أكن أتملى الخصر المتحضر كلما رقصت معها مغتنما اللذة القصوى من احتدام الرغبات !

يتلوني معها حائط أزلي بدم مزيج بوجوه التناقضات من عناء، فكاد الوتر يكسر القوس، أو كاد القوس يبتلع الوتر، فارتدت علينا سهام الطغاة !

— ١٥ —

وداعا أيتها الخاسرة بالسنين الأسرة .

لنقل : تعارضا، أو التقيا / كانقلاب بين نقطتين حدّ التقارب، أو حدّ التباغض/ جمعاني بين أ لم من موجعين/ أرقاني انفلات نهجين متطابقين بكل التفاصيل، التقيا منشطرين/جمرة منها ترقص في الإحداق محتدم اعتراض في الأعماق/التصقا متوحدين حد النقطتين في المكان الواحد كلفاني كل حرب دمعة نازفة بندم حد البغضاء/ التقيا دون أن يمحو مطر الخسارة – الجرح/ لا شمسها، أو قمرها ..

التقيا انقلاب عجل النقائض بالاحتقان كلون متكدس، تقتما

— ١٦ —

لم يكن بوسعي، حينذاك أن احتفظ بالمسدس الذي ما تعلمت شيئا سواه؛ يوميا أفتش الجثث... لم يكن بوسعي، حينذاك أن أحلم بامرأة، وأنادمها بالذيلم أتعلم سواه ؛ يوميا أفتش مقبرة الأحياء.

[ففي جولة ما كنت أخاف عليك من الملائكة المطاردة حاملا كل يوم حقيبة العتاد، مغنيا أجمل ما عندي من حب إليك، بأنك في الأخرى تخافين لأجل أن أعود إليك محملا بالأغاني جاهلا بما عندي من حب إليك بأنك في النهاية تتحينين الفرصة وتدمرين ما بيننا من حنين].

لم يكن بوسعي، حينذاك أن افهم: رحيلنا تقافز نحو النقطة التي بيننا/ رحلينا ما فرقنا. رحلينا مسافة تتقلص بين متباعدين، كلما نظرت إليك قلت بصوتلم تشوهه الحرب:

- ما أجملك؟

أيتها القصيدة برحلتنا تصير الجندي الذي كنته، اليوم/ الشاعرُ النهمُ تحسسا للمفردة النابضة. وما فرقنا – أجمل القصائد بأنوثتهن البديعة، كلما مرت حروف جميلة مثلك قلت بصوتلم تشوهه الحرب:

- ما أجملك،

أيتها القصيدة / أيتها الغائبة !

— ١٧ —

قال ما قالته العجوز الهرمة أن الزهر قد أشعل البستان ومياهه طاعنة الجريان/ لا تخرجوه، واختاروا مكانا آخر للنسيان!

— ١٨ —

أيتها الشاعرة، عفوا من الق لعينيك يطاردني على السطور. يعقني حزينا، منفعلا، منجذبا إلى وجل مخفي بكريستال ..يجاذبني، يعاتبني.. هدير ماء أنثوي، وما حولي قحط قائظ .. نسيم طيب طالع كشموخ الملكة/ فما عدت من اغترابي بين الغصون المتشابكة، والليالي... إلا لأكون الساحر الهادئ، الملول من عتمة الوحدة/ الشاعر/ لم أكن أعاني انهياري.

— ١٩ —

آه لواراك لزال الشوق، محتدم الفراق بين شاطئين، أو ريب الذل كلما لامسني وجه غائب قالتها عرافة: ما أقسى الزوج عليك ؟ ارق تسريل من منافذ الليل إلى مائدة الخمر كسوسنة أفرطت، سؤال— من ذا الذي يمتشق الظلام يكتب حبه الأول ، ويكتمه .. يبحر في اللجة دون شمعة،

دون غياب/ يا هذا المتطرف انهض من هذا الركام/ آه لواراك لزال مني لاعج أن أراك مختصرا ما يكلفني الشوق من عثرات.. سادت حسرتنا/ فكنت تكرهينني وتخفين العلانية أو كنت احبك واخفي العلانية فمن يجمع ما بيننا، لا قول لك كلماتلم أقلها وأقول ما رأيت بعدك ولم يقال :

-[ربنا نسمع ولا نرى.. في كل رأس من الحي عاهرة، وفي كل زمان من العاهرة حياة.. ربنا لا تؤاخذنا أن سمعنا وما رأينا لا أمواج خيال، ولا أقل مما سمعنا] .

آه لواراك/ ستعلنين عني غياب الفضيلة كلما سألت نكرانك .

-[خائنة زوج معك، وخائنة عشيق معي] .

— ٢٠ —

كأني بطل كابحا جماح اليأس تؤرقني الأسئلة/ متابعا لجة الوقت، قاتلا في المسار مساءات الحرمان الداكنة ، وانهيارات المدن الآمنة راغباً في البحر أدنو من اللاقرار في الكابوس أرتجي النهار، فكلي أشياء تصادمت، وضيعت بعضها تصادم فخار، وما أنا بمنتهك للذتي قرب سرير، أو خلف جدار ارعوي كلما لامسني الضياء، وأشاكس خيط الوجل ببعض النشيد

ارتوى من حدقة تطابقت على حدقتي وظل هديرها يفيض عطرا، وأنوثة احتدام/ لم أكن أغني/ لعينيها كلما راودني التاريخ عن مشقته، ولكن كلما توهمت بين لمام أضغاث توهني/ قلت للسحر ما هذا الانبهار؟ قلت للوقت ما هذا الانتظار؟ كأني بطل قلت بعدم ما هذا القرار؟ كابحاً جماح اليأس أطلق حمام روحي/ رسائلها، وما من مستلم لتعود إلي، خائبة، باكية، نادمة، لا أحتمل المزيد.. كابحا جماح العناء، مقاوما درس العنة في زورق البغاء.. ما هذا العطر؟ ذكرني بتلك العطانه/ قلت للسحر يلجمني ألف قرار، وأنظر ألف نجمة هاربة من واجهة شباكي، أعب هواء كلما تفتحت بوجه الشمس زهرتي، ملامسة وجهها المتطابق على الماء بوجهي، سا بحا في ارق المسافة اختصر النهار- بعد قذيفة تكسر القفل، تبحر السفينة..بعيدا عن معمعة الحرب القاهرة بعيدا عن قلعة الوقت المحاصرة– بعد قذيفة نلملم أشلاء بعضنا، بعد غبار ودم/ ما أبشع رائحة تكاسلنا، وما أسرع تيبس الدم كم أنا منثلم كلما دونت اختصاري، وقالني مالم يقله عراف كم أنا منكسر كلما كتبت انتحاري وشطبتني الأغنية/ تاريخي ملحمة؟/ حريتي المقننة ارثُ شاعر، تأرقت بفوضى الأسئلة/ مساحتي المبسترة حلمُ شاعر تأرق بفوضى الأسى؟ وقت احتضاري؟ كلما وقفت على شرفه انهار بي الجدار كم من الوقت يمضي شدة بعد الفرج بألف اختصار/ المفروض نهجا على/ المستتر ضراوة يبغي اختصاري، ويمني بهذه النهاية انسحاقي/ إفلاتي عن حسرتهم، قابعا فوق حريتي/

القن/ تمرد/ درج النظرة على، متخلصا من خبثهم، منتعلا حذري بين موتين، أو بين زمنين كابحا جماح اليأس بانسلاخي عن جلدتهم .. قابعا فوق حريتي القن التمرد بألف اختصار.. ارقصُ، أطربُ، أضاجعُ وجع نفسي التي اجتثتها المراقص لكم أنا سعيد.. كلُّ رقصة في التابو لعنة.. كل مباح في التابو ضياع.. بين موتين، أو بين زمنين كابحاً جماح اليأس تؤرقني الأسئلة مادمت نقيالم يبللني الخجل منهم، ولم يقيدني الخوف منهم.. كأني بطل كلما كبحت جماح اليأس/ يتهاوى الوقت مذبوحا قدامي بين وقتين، أو بين موتين كالبرج، والنوايا.

[خسارة شباب يأفل جسده، متوردا كان حتى استحال إلى اخضر، ازرق نتن] المرتهنة ببلل الخطيئة سألته ما الذي شوقك إلى الخلود حد النسيان، حد التكدس في العتمة وحيدا تسأل كيف اختصوك وأزاحوك من الأزمان ؟ وحيدا تحمل كأني بغير سلافة برغم العثرات أمضي بين سرفات باردة/ لم أكن اهرس! حلمي/ حبي/ وطن لن تكرهه انتماءاته/ بندقية/ علم /أناقش موتي الذي تحقق كالبرج المهدود، والنوايا المذبوحة/ وحيدا /أناقش فشلي الذي توالى كاليوم المتشابه ، شظايا / وطن × حزين/ حلم / حب / وطن× بندقية.

م-

لم كل هذا العناء بين متشاكلين اطلاقتي سؤال، وهجومي مرصود [أن اللحظة تموت ما ان قرأت، أو فهمت] فلم كل هذا العناء / أحتمل فرحي بين البينين انتشائي؟/ انزوائي الحر في أقصى المعاني/ أنت أيتها المتشائمة/ أين ستحل بك الطرق، والمفارز تقطع على العابرين هواءهم؟ أين ستصلين مخنوقة باللاوصول؟ إلى أين اسأل القصيدة/ اجرف الانحلال/ فما زلت تتخبطين بأوقات الزؤام/ خدعة الغاوي تقرب المسافة- كذبة سراب/ قلت: للنرجس الذي بين عينيك اني الماء العذب والعسل صدقي الساطع/ قلت: للتائه الضعيف يداي مفتوحتان ولكن الحرب انتهت شدة بعد الفرج !!

ن -

كأني بطل برغم أسراري/ بواطن ضعف متكسر في المرائي إلى صور صغيرة إلى مزق .. إلى نتف لا تساوي برميلا فارغاً، للنفط.

— ٢١ —

الا يكفي أن لا اشتاق إليك وأن أنام قريرا حيرة حبلى بالشدّ .. دمعة هبطت في مسائي العابر كنسمة. وجه أتذكره: حيرتي. أهي التي تأخذني بين أيجاز، ودمعة.. تفرقني على أحزان متعددة ؟... الا يكفي أن أصبحت المثقل الجريح . اقبل على أية فكرة تسد عليَّ الباب – لا ضوء في علبتي/حيرتي: بأنك من جعلني أكشف نفسي لنفسي مازال خوفي قائما من قلبي.. ألا يكفي؟ تتحرج الذكريات من شفة، أو كحل ، أو مفتاح .. تذكرت أني أتخيل لكنه اعترافك.. ألا يكفي أني في واد والعالم في وادّ/ اكتشف أن بكائي فشل، وأن ارتباطاتي محض وهم .. وكل الأصدقاء هم أصدقاء لحظة واحدة وكل المساءات عابرة .. ككل شيء، أو كأي شيء/ لا ضوء في علبتي/

— ٢٢ —

أيتها النجمة التي وهبتها كزينة ليوم جامد بسماء كابية .. انتشار فجر أخذت بيدي مشذبة سواد الألم من العيون عيداً سعيداً، مني صاباً نبض العشق في وريدها /أيتها النجمة تفتقدك الأرض كل لحظة وما جعل مني عبداً في ضعفها جعل مني سيداً في قوتها أيتها الأنوثة: عيداً سعيداً مني/ اغني نشيدك فلا ترفض نغمة عشقي أن تحفزت بدمعك/ ودعت فرحي خيولا عرجاء قد يقتلونها!

— ٢٣ —

جرحني النسيان/ بقيت وحيدا - خطوات تراجعت/ أنا النبرة الغاصة بالوجد ومن ظلمه الحبيب ضاعت تحت قدمه الخطوات/ جرحني النسيان لهاث أنثوي على صدري احتراق العشب بالأبيض/ حلمتاك !

جرحني النسيان/ ربما شفتاك بالعسل مطر غسل الشجر.

- أسألك قبله ؟

أول مساء، وآخر كل ليلة نتبادل الرضاب.. خريفا كانت شفتي، أو تكون نهار جولة أصابعي، وعيناك ترقص بالاغتلام .. أيتها المرأةُ، العشُ ألهاني عن ما يطيرني/ يشعلني همسك حتى احتوائك، أو تمنحني حريتي.. تعالي قبل انغماسي بك.. تعالي جرحني النسيان، فأنا ما عدت أراها/ كلما أراك.. جرحني النسيان فما عدت لذلك الحلم/ قصةٌ/ حياة أخرى ما عدت قادرا على تأليفها اختزلت الذكريات صاعداً/ نزلتُ النسيان !

— ٢٤ —

تعالي نستطيل عليه مثلما هو يتربع علينا وقتنا الهارب، فضاء من الدهشة أيتها الطفلة مازال الهم عالقا بك من حرب ذاهبة/ تعالي نقتص من الفضاء المفتوح.. ربما تخافين منها الأحوال رديئة بيننا ولن تعود أبدا تقولين: حدتني من كل جانب كأعمدة رفيعة عالية ذات لون ما، وتدلت نهايتها المحنية فوقها ما بيننا من مصابيح صغيرة/ تعالي ينداح منك ضوءلم يعرف معناه تساقط علينا هادئا، وبدا متسلطا على بؤبؤي بقوة من هرب من قفصه/ تخافين من عودتها إلى اللا مكان فلم نستطع أن نرى شيئا بعدها سطوة ضوء تتقاطع مع حولنا/ وجدتك

بضعف يغطي قوتها / السنا منحلين لا نستند الى مكان نثبت عيه قدمينا؟ السنا بين لجج مجهولة، حولنا تفاصيل الغدر؟ فصارت الاتجاهات بألف مجهول؟.. أفلا يحق لنا أن نرى ؟ كي لا نكون بتلك الضآلة في ضوء مصباح خافت نكتشف إحساسا من هشاشة / سح شديداً في تلك الأعوام الرمادية المفتنة السطح ومن ورائها أغصان أثيثه داكنة في عشوة الليل الراعف.. تعالي نتربع أن استطال هو، أو نستطيل أن تربع (هو) وجهك صار اليوم متوغلا في المسامات .. سليطا بالاحتدامات/ ألم يكن لنا معا مقاومة متعارضات لا حدّ لها / وجدتك بضعف يغطي قوتها/ لا تخافي من وقتنا الهارب/ فينا/ تعالي/ تأرقت المسارات متأزمة بالنسيان، أو تمادت الخسارات متأزمة بالفقدان.

[أنا الروائي ونصوصي متداخلة بحصافة الحرية التي اكتبها، ابتكرها. فلا عجب من الشعر الذي تمتلئ به حريتي، بالقص الذي تبتكره مخيلتي].

شتاء ١٩٩٦

النصُ علمُ العلوم ومنه يجتاف العصر

-١-

يحكى انه قال العتابي فيما مضى:

(البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق)

وذكر لنا الجاحظ عن أعرابي انه قال: (من التوقي ترك الإفراط في التوقي!)

-٢-

ما من أديب منا- إلا وقد غطته التراكيب المتواشجة بالأساطير، والخزعبلات وأقصته بعيدا عن المعالم الحضرية المتناثرة على وجوه الحقيقة المريعة..

كلما تصورنا ان نواجه الكلمات الأكثر سلطة من الصمت، الأكثر حيوية من النص، إلا وغرقنا في تفاصيل موقودة بالمحرم، بالممنوع..

لكم تصورنا ان عالم الكلمة اليوم وغدا سيكون من قاعدة ثابتة.. ضمن ما يكون التحديث العصري المواكب لانزياح المعلومة الغيبيّة بمعلومة ذات أصل، وكيان!

لكننا لم نر سوى انكسار آخر ضمن المعنى انكسارلم يعن الانحراف عن القصد، فحسب. قد يؤلف معنى جديدا/ يكتسب ثباتا آخر.

كيف تثبت تلك الحيثيات بين المعاني وتخرج صارخة بوجه المتلقي العارف/ العليم.. صماء اكثر عفوية وأوغل معنى...؟

ان ذلك الصدق المعنون، المسمى لا يكون إلا احترافا قدريا يكتبه المرء دون ان يستند على دوغماجية بالية أكلتها العثة.. دون ان يتحرر من الفراغات العفوية بين العهد القديم/ الجديد، والهفوات الجوفية غير المقنعة.. اقتدارا تكون الكلمات المستندة على معرفية عريضة، فمن أين يأتي بكل تلك الإرادة صانعها، وناحتها بأبشع الأزاميل الطاهرة...

نكون في لحظة عفوية قد امسكنا المعنى المفترض بين التلافيف، نكون قد صادرنا الاعتباطي الغيبي المجوف، واللا توجه فنقف حائرين ضائعين بين حدود النص في الذهن، وبين إدراك مغزاه على امتداد المقصود..

ما نكتبه الآن يصبح بعد حين، بعد جفاف الحبر شيئا باليا، رغبتنا في التمزيق اكبر من رغبتنا بان يبقى، وان يقرأ.. وما ان يقرأ بعد حين يكون ثاويا في مجد الذهن يطاردنا ككابوس متسلط متنفذ على آلية ما نكون به، ومازوشيا على حيوية ما نعرف...

ان الكتابة قد تطوف حروفا متناثرة بين جزئيات الكتاب، مؤثرين ان نجمع الدم، والموقف فلا نحيد عن عزمنا اللبيب إلا بالكتابة المتفجرة كالدم الخارج نزفا من جرح عميق.

-٣-

الكتابة فن الهي متسلط يطمس منا مناوراتنا في العيش. يحاول ان يبوح، ولا يقدر ذلك الإنسان الذي يمتهن الكتابة في أعماقنا، أنه يمتهن غربة المعاني والاشتقاقات المتناصة اكثر من الذي يرغب في حرية عبثية الكتابة.. فما من شيء ألذ واطهر من النص الذي يطوف الدم به (داخل الجسد) وما من شيء اقهر منه عندما نجمع الظروف كلها في انتظار الهطول السريع والمرير على مساحة الوردة/ تلك الورقة الفاضحة!!.

نسعى الى داخلها، بتمكن حريتنا المفترضة، نباغتها معلنين تمردا خاصاً يساوي كل التمردات الآنية لفعل الإبداع..

-٤-

النص في تركيبه متحرر من التفيقه، ومن التفتيت لكنه مربوط إلى عمق رتابة لغة أخرى لا نفهم منها/ لا نحوي من مصطلحاتها- إلا حرية أخرى في قراءة جدية جديدة بكتب التراث الخالدة .

النص في تركيبه موحد، مقوم من الفجوات دون تقلص أو تمدد في حرفيات المبتغى، كأنه انسياح ماء إلى منحدر، يغرق الأشياء الصغيرة يحوي التفاصيل/ البويضات التي ستلقح بذهن المتلقي الفذ/ القارئ غير الدوغماجي/ يقرأ دون كلل، أو ملل ..

النص في تقلباته ضغوط ومخاوف يخرج للعالم... يكون حرا في أول ولادته. لكنه يتحول إلى ثابت مدلول بعناصر إشاراته . وعميقا بمساحة مدلولاته. فلا يكون غامضا على مبتكره القارئ الآخر من مبتكره القارئ الأول/ كاتبه.

لا بحرقة الأسئلة المكتناة بأرضية المعلومة الحية، ولا بترحال رابط الفصول بالأبواب وبالمقاطع..

يستخدم النص ذاته تتابعا تركيبيا مفصلا بجمله الموحدة الطبيعة من حساسية تثور بما تحمل وتثوّر بما يحدث. ذلك هو الزوال/ المفهوم/ المستخلص من النص بحثا عن التأويل في التناص الذي في الذهن فما قاله النص أشبه بالنصل الذي يحقق الثار المبتغى. ضمن فعال شنيعة جرت عليه وهو دون آله لفتح المكنون والمستتر والمضمر ..

تلك آليات السكون تكون متحركة مع فعل النص في الدواخل المتعددة/ فاعلة المآرب في المقاصد تحديدا!!

-٥-

أي اعتبار لفظي منقول حرفيا من وحدة اللفظ الواقعي في اللغة الدارجة هو حالة من الصعب عبورها ترجمة فلا تكون إلا وهي كاملة القنوط بإبدالها أو بالدوران بحثا عن كلمة ترادفها حيوية تلك الكلمة في عمق محليتها ومشاعية اندلاعها تشبه صورة الفوتغراف التي تبقت

الأشياء فيها كما هو عليه الواقع/ المستلب إنها تعي مكانها المعلوماتي الكاشف عن سرّ لا تأويل له باتجاهات مختلفة !!

-٦-

النص ذهان متوقد فيه حفريات معرفية عن أصل المراجع وعن اصل الخطاب الموجه من الذات إلى العالم، ذهان كأغنية لا تغادر بإيقاعها الذهن تطوف مجتافة كل الاختلافات البصرية، النغم يجري على السطور، كلمات محسوبة، مدركة من قبل، ومكتناها هو ما نحس به الآن قبل بدء النص وتصاحبنا حتى نهاية الحرف الأخير من الجملة التي ننتهي بها وحدة نص أديب غيره قد سواها محاطة بكل أساه وحساسيته/ الأديب يبحث عن شجرة أمجاده في سجلات دونها من كان في مسلته الأولى، يوزع عيونه على الأحرف المتشابكة، ويحل لغزها المتنور أساسا مما يحس به، ينسى انه يكتب (ساعة الكتابة)، ويحلق بقلمه آليا في بقاع الوجع الذي يشكوه لصديقه القارئ/ الباحث في غموض المدركات..

فما من قاعدة إلا وقد استثنت شيئا، او قالبا. بذلك المستثنى يستنتجه المدافع القارئ عن النص المكتوب بوحدة الربط الممكنة، والمتوافرة في عقليه ربما لا تحمل قدرها المؤهل لان تكون المتذوقة لعطر الوردة/ تلك الورقة الفاضحة..

ذلك اهاب تابوات المغلق برغم أصالة القالب المحوط لتلك التناقضات التي يغويها النص/ يحتويها على ما بها من تعارض، أو توافق!! .

-٧-

...المفترض يحمل نصا مواجها بالذهن الخالد المرهوب .

غبي ويا لشقائه عندما يرتكن نسيانه، فيصير موازيا لرجل هرم لم ينجز شيئا سوى كآبته.

(قارئتا القديم) كان في عتمة الاعتراضات، ولم يحمل على ان يحرق شيئا من دمه ويكتب به مأساته الشامخة فوق الدهور.لم يعلن عن استلابه القهري/ الجذري/ أبدا.

النص وحده هو ذلك الوجه الذي يحوي حريتنا المحرمة، وحريتنا ان لا نصرخ صرخة استغاثة مفضوحة الأحرف مكشوفة الدلالات .

الوجه هو النص الأكثر هيمنة على النسيان... ينسينا نسياننا دون ان ينسى، ويقول قولنا دون ان نحرك شفاهنا .

النص الحديث يهيمن على الوجه، يمنحه لونا اخضر يدل على حرية الحياة، و حركيتها.

النص المقترح لم يكن مقترحا وجوديا غير مدرك، بل هو هوية خلاص نبرزها ساعة الحرج مع أي متشكل يقتحمنا.

النص حالة خلاص؛ الوسائل مبررة بالوعي، وليست الكلمات النائحة تعديلا خالصا على جمهورية الحلم الجديد.

-٨-

النص ولادة اقتراح متنافية مع الصبر الذي تقيده الأيدلوجيا المتسترة خلف أنظمة متغيرة لاحتوائنا، والنفاذ فينا- قصد تقييدنا من انفتاحنا على المفتوح غير المطلق..

كل شيخ فينا شاب غيور بهذا العالم الأفاق، لكن الإرادة، لا تجيء كاملة الضرب إلا باتفاق ناكر للذات، لا مصالح، ولا مطامع مرغوبة غير الحرية.. غيور هذا العالم لكن الإرادة لا تجيء طيعة؟..

نحن نميد العبارات، أحيانا نميد الحضارات بالتخلف المحدد بحبر احمر، وأخرى نميد أفكارنا لما يتوافق مع امتداد الحضارة/ الحداثة التي لابد لنا من معرفة مستجداتها/ غاياتها.

لا نريد الهدم، لكننا سنعي أولا وآخرا: ما معنى الانفصام، ما نوعد به دون ان نناله؟.

نحن نحب الذات إلى حد التلاشي، ويضيعنا التراب، فقاحلة كل السنوات التي لم ينجز فيها الكاتب نظريته التاسيسية إلى أمام دون كابة/ ظلمات النفس القاهرة ..

أي وجع يسكن ذلك النص لا يعدو إلا ان يكون وهما نضاليا/ لا يكون سراجا منيرا يتخلص من إشكاليه سلطة الماضي الراكدة .

النص المفتوح، هو الخلاص. ولكن كيف ستتأقلم الكلمات بين ما نفكر به، ما يحدث علينا من استلاب حتى بلقمة الخبز الطيعة..

-٩-

النص المفتوح قطيعة الاقتراح ، وبديل الراكد سرا مكسورا على وجه الماء الذي لا يريني ذاتي، ولا يكشف إشكاليه من يكون أبن هذا الجيل الحداثي الذي يريد ان يرى دون ان يتمكن؟ يريد ان يكتب ولا يغير تراكيب بنائه بعلمية حاضر ذكي متحضر.

النص المفتوح حتما هو من سيفلت من المقصات الدامغة التي تعكر صفو التمازج بالفن القائم، الحاد، المتوازن الرفيع، المهيمن على الأفكار المنفلتة من سلطة الذوق السائد في بناء النص المزيل للكومة العالية المتراكمة من الفوضى، بالنظام المبيت بين تلافيف عقولنا المتفردة، بنرجسية الفن في كل لحظة- انطواءات الفكر المكنون بالكشف والتعرية..

النص المفتوح ما يحقق النصر على الموروث التراكمي، واعيا للذات في الزمن، إذا يتخذ النص شكلا يعي عزلة الحاضر وعلاقتها المنفتحة نحو المستقبل!!.

-١٠-

الحداثة هي إزاحة التراكم الخوفي الغائر العمق في الإنسان من التسلط، وإزاحة التراكم الخوفي الغائر العمق في الشهوة من الموت...

الالتقاء بغبار الأسئلة التي اثارتها حساسيتها الحاضرة المواكبة لانفتاح العلم ضد الانقراض؟.

-١١-

للنص إرادة وهيمنة على الابتكارات السارية ضمن وحدة العقل مثلما شهوة غامضة، فسلجية تمور في الخلايا، وتتقد في الرغبة. تجعل منها عمياء لا تصل نحو متعة مبهمة، فحسب وإنما متعة كيفية تجبر على الافتراضات المتوالية. فالعقل وحدة موضوعها كله. العين الباحثة بعقل في وحدة العالم المترابط في اسكتناه تلك الشهوة ،العين توعز لذلك الاحتدام الذي يغلي في العروق.. اللذة قد لا تتحقق في بداية نص تأقلمت فيه تلك الأفكار المكتسبة.

فالنص يبقى عصيا، ومحاصرا إن لم تكتمل الرؤية، وإذا اكتملت الرؤية يكون علينا أن لا نجعلها ضمن ما تضيق به العبارة!!.

نكتب مرة أخرى النص الموازي لما اعتمر في الذهن الذي تحقق ذلك الالتحام:

الذكرى/ الأنثوي، النص/ الفكرة ..

عبارات تتمادى في دفء وانجذاب؛ ينجذب الذكر إلى أنثاه.

وتقبله الأنثى احتواء تملكا خاصا بها، وهو خالص لها، يهم بعض ببعض ويحدث، في الالتحام الأزلي الداخل ضمن المدخل..

المطروح للقارئ/ المضمر في القارئ.

النص المفتوح، يغري.. المرأة تغري الرجل، فيغويها إلى مساحة بيضاء، متحررة من الأعمدة الجاهزة يصور لها ما في حلمها واقعا تطالب به، فتقع في كماشته، ليوقعها نصا مندلعا دون توقف وما ان يتوقف، تنفصل...

الانفصال يعني فشل الغواية... تعني البدء بالمعرفة- المعروف.

-١٢-

النص هو تشاكل عفوي، وحدها القراءات في عيون الكتب، في أخبار الجريدة، وحركة السوق.. نقلا للمعاني (ليس حرفيا)- فيسمى واقعا، نقلا فيه شخص المؤلف الغاوي للنص/ المرأة، الفحوى.

النص هو؛ قدرة الغاوي على الاقناع، او هو حدوث المتعة القاطع، ومنهج اللذة تخلصا من الكبت القاهر!

النص الحديث هو الحفر المضني الذي جعل جهابذة التشريح الأولين يتجول في المقبرة نهارا لتيأهب ليلا لفعل اللذة/ التواصل/ التوازن لفعل الوصول إلى ذروة الكثافة.

القارئ هو مكتشف إيقاع الحيوية والكاتب هو الفعل المحرك لهذه الديناميكية، فمؤلف دون مقترح، لا يكون..

-١٣-

الحرية ان لا نكتب بتأن خوفا من قراءة تثلم النص. النص هو احتواء تلك النظرة الشاملة/ الداخلة في عمق الظلمة (لا يكتشف الضوء الآخر تحت سطوع الشمس في نهار).

نقل الضوء: الإبداع (فلا تقوم صبيحة مندلعة الإشراق بعد ظهيرة، إلا قبلها).

النص/ الفكرة بذرة آمال طامعة، طامحة. تحتاج بعد المتعة الشقية، واللذة الشهوانية إلى ارض لتزرع/ كيف يسترشد الحيمن بيضة تأهبت قبل اثني عشر يوما فسلجيا. اللحظة التي امتدت في داخل النص صارت في ذهن المبدع ملحقا الذكرى منفصل عن الأنثوي/ كذلك الشجرة التي لن تنبت في الهواء، وإنما الأرض/ الزهرة/ أيضا.

النص: (تلك الوردة العطرة التي لا يمكن لأعمى معطل الشم أن يجدها)!!

ـ ١٤ ـ

دوغمائية الكتابة عطلت التحدي، وبطلت التجديد والاتصال تواصلا بالحضارة..

أننا الآن نكتب عن ترصدنا الباحث بعمق عن فكرة تكونية الكتابة، الكتابة العصية بكرامتها، وعزتها تلك التي حافظت منذ الأزل على بقائها. ممنوعة، محرمة. فلا يصح إلا ما بقى ممنوعا .

ذلك الأكثر رغبة في البحث، فأوراق تسقط كل موسم وتبقى الأغصان تندلع منها أغصان أخَر.. الريادة هو ما يفهم من مثال الشجرة في كل الفصول/ المواسم..

الكاتب/ النص: هو حدّة الحساسية بحدة العاطفة/ حساسية الكشف/ التعامل مع الورقة بعاطفة (دون جوان) المزيفة.. التي يتبعها مع كل امراة بعاطفة تلائم عاطفتها.. يغويها فتظل تبحث عن طريقة اكثر تعقيدا من السابق في إغرائه، فان نال أدار ظهره عنها..

ـ ١٥ ـ

لكم تحرجنا التفاصيل المجترحة بالثناء (بما يريده الناشر) وتأرجحنا مخلخلة ما نتذوقه اليوم/ تفصل رؤيتنا عما نتذوقه غدا!. فالنص الذي لا يحوي سؤالا حيويا يحدد ما نحن به (يبوح بما يحصل علينا من استلاب مبرمج) لا يسمى بما يستحق القراءة – أن نقرأ نصا آخر جدارته بما يعلن، وبما يعطي من ابستومولوجيا...

النص الذي يعطينا هو الذي يستحق كل ما يأخذه منا...

النص الحر اقرب إلى القلب، والآخر لا يبتعد بمكانه عن سلة القمامة/ مقبرة الأوراق!!.

ـ ١٦ ـ

ديمومة تلك الحروف المتشكلة ، انتفاضها من تسلط المتحجر، يعني ركن الركام الهائل من السفسفة في غير فصولها. الكتابة ارتزاق أيضا، واليوم تصيرت بكل العلوم!!

عصرنا يطول كل (كيف العلم؟)،

وأيضا يفشل في أل (لماذا)؟

اصل النص عندنا يعني كيف يتم البحث والأكتناه وراء كل العلوم.

ـ ١٧ ـ

نكتب النص، نعبره، فاخترقنا.. بعدما ننجزه، وأنجزنا كتلك المناغمة الأسطورية التي قالت (حواء من ضلع آدم) النص الحديث علم العلوم ومنه يجتاف العصر!.

٢٩ شباط، ٢٠٠٨

الفهرست

فضاء كله دم	٥
الحلم بوزيرة	١٥
موسيقى قصص الحب	٢٣
الدروب التي لا تتصل بطريق	٢٧
نهض الأب	٢٩
الضحك	٣٣
ليلة اخرى	٣٩
كذبة فاقعة للزمن الفاقع	٤٥
جثة قد تأجل موتها	٥٣
حكاية الاسرة	٦١
شاي حار	٧٥
خمس مقامات في السياسة	٨١
خسارة متأزمة بالفقدان	٨٩
النصُّ علمُ العلوم ومنه يجتاف العصر	١١٥

رقم الأيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٣٥٧) لسنة ٢٠١٠

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة